مصنع الأكاذيب ٢

مجموعة مؤلفين

مصنع الأكاذيب٢

مجموعة مؤلفين

مراجعة لغوية: حمدي عبد الرازق

غلاف: د. عبد الله رجب

رقم الإيداع: ٣٠٧١٢/ ٢٠٢١

تدمك: ٩٧٨_٩٧٧_٦٧٩٨_٥٨_٨

الطبعة الأولى: يناير ٢٠٢٢

الفؤاد للنشر والتوزيع

برج سانت فاتيما ـ أمام جنينة مول ـ مدينة نصر

Alfouad_Publishing@hotmail.com

facebook.com/fouadpublishing

شكر خاص.. صالون سالمينا الثقافي

مصنع الأكاذيب ٢

مسابقة الفؤاد للقصة القصيرة ٢٠٢٢

الفؤاد للنشر والتوزيع

شكر واجب

لأسرة جروب حرف وجروب أدباء لكن ظرفاء لجهودهما في مسابقة الفؤاد للقصة القصيرة.

للجنة النقاد في صالون سالمينا الثقافي.

للأقلام المصرية والعربية الكبيرة التي أيدت الفكرة، ووافقت على الانضمام إلى كُتاب المستقبل بين دفتي مصنع الأكاذيب٢

وإليك.. القارئ العزيز الذي يستطيع تمييز الغث من السمين.

قامت أولى محاولات كتابة القصة القصيرة في القرن الرابع عشر في روما، داخل حجرة فسيحة من قصر الفاتيكان، وكانوا يطلقون عليها اسم "مصنع الأكاذيب"، اعتاد أن يتردد عليها نفر من سكرتيري البابا وأصدقائيهم للهو والتسلية وتبادل الأخبار؛ وفي مصنع الأكاذيب هذا كانت تُخترع قصص وحكايات عن نساء إيطاليا وعن البابا نفسه، كطرائف ونوادر، مما جعل الكثير من الأهالي يسعى لحضور تلك الأمسيات حتى لا يهزأ بهم أحد في غيابهم.

د. رشاد رشدي

فن القصة القصيرة

بائع السعادة. أدهم إسماعيل

قُرب المغيب، والريح تنساب برقة على أوجه المارة، مع حفيف أوراق الشجر، أسفل سماء صافية على عكس عادتها، في أواخر فصل الصيف من عام الثورة.

عيناي تحملقان في الأفق وأنا أرتشف من فنجال الشاي رشفة أخيرة أثناء جلوسي بالشرفة، استمع في الهيدفون مقطوعة الحركة الأولى ل بيتهوفن.

محاولة أخرى لنسيان ذلك اليوم المشئوم. نهاية عملي. في المطعم المحترق!

ستار الليل يدنو مع سقوط قرص الشمس.

أترقب الرد في رسالة على طلب تقدمي للعمل الجديد بمتجر الحلويات المفتتح حديثًا على مقربة من شاطيء البحر المهجور.

انتهت السيمفونية على مهل وغلفت البرودة جسم الفنجال من الخارج مع صيحات عالية غير مفهومة لمجذوب هائم، جديد بالطريق.

///

المصابيح البيضاء تسطع بقوة لتنير كامل أقسام المتجر.

اعتدت العمل وحدي كبائع، وعلى ماكينة النقود جلس منير ابن صاحب المحل

كانت الأيام الأولى شاقة لكلينا، استيقاظ وذهاب للعمل باكرًا، تنظيف الأرضية والرفوف وزجاج النوافذ والقثارين، إعادة رص قطع الحلوى وتلميع علب الشكولا المغلفة، ثم تأتي عربة المصنع بأطباق جديدة فنعيد الرص مرة ثانية

وبين هذا وذاك كان علينا تحقيق مطالب الزبائن بابتسامة ساحرة وسرعة دون أن يشعروا كم نعاني من الجهد.

///

هبت نسمات الصقيع وتساقطت أوراق الشجر، فكان الخريف.

شهر مضى للنسيان.

كانت أمسية من الأمسيات الهادئة آنذاك، على نغمات ضوء القمر ل بيتهوفن. دلفت سيدة للمحل يبدوعليها الأناقة والرقي.

لاحظت ابتسامتي الودود فبدا عليها الارتياح وابتسمت بدورها، تقدمت مني وبصوت هادىء قالت:

ـ الليلة ذكرى زفافي ووددت أن أحتفل به مع زوجي في البيت، سأحتاج بعضًا من أطباق الحلوى وعليك أن تختار لي.

ثم صمتت برهة وأضافت منتبهة:

ـ عذرًا لم ألقِ التحية، مرحبًا أولًا.

اتسعت ابتسامتي ورددت التحية إليها ثم اقترحت عليها الشكوليت براوني والآبل باي والكوكيز. لم تحبذ الكوكيز واستبدلت السوفيلية بها.

شرعت في تجهيز طلباتها مع دخول مستر عزيز المكتنز قليلًا وصاحب المحل وقوله لي:

ـ كريم، سوف تقضي العيد معنا هذا العام.

كان عيد الأضحى قد اقترب.

غشاني صمت لم يكن يتوقعه، فأردف بنبرة حانية:

ـ سأعوضك.

أعطيت السيدة أطباقها مع علبة شكولا طلبتها بعد تفكير.

أخذتهم فرحة وحاسبت الكاشير وذهبت لتجعل نسمات الخريف تدلف مكانها مع خروجها من الباب.

///

أيام الصيف الحارقة وازدحام الشواطئ بالوافدين.

ازدادت الطلبات على الآيس كيك والچيلي كيك والبقلاوة والكنافة بأنواعها. كذلك الكوكيز والوافل والكريب لحفلات النجاح.

كان مستر عزيز قد أتى لي بعاملين جديدين، وتمت ترقيتي لمشرف وتضاعفت ماهيتي مرة ونصف.

اقتصرت إجازاتي على يوم الجمعة. وكثيرًا ما كنت أعمل فيه في إحدى الفترتين، أو أقضيه في النوم.

///

انهمرت الأمطار بغزارة ذلك اليوم.

في أمسية من أمسيات الشتاء القارسة، منتصف مقطوعة بحيرة البجع ل تشيكوفسكي تسري برقة في جنبات المحل الفارغ.

دلفتا مسرعتين وهما يفركان أيديهما وأسنانهما تصطك وقد غمرت المياه كامل ملابسهما. سيدة وابنتها.

تقدمت مني الفتاة. كانت ترتدي بنطالًا أسود عليه كنزة بيضاء وقلنسوة حمراء كلون حذائها. هكذا انطبعت صورتها في كياني. عيناها الخضراوتان وبشرتها المكسوة بسمرة.

أذكرها ولا أذكر ما طلبت، أذكرها وقت المغيب وأنا أحتسي من فنجال الشاي بالشرفة يوم الجمعة، أذكرها أمام المدفأة ليلًا ووقت النوم وفي سنة خيالي، تأتيني في الأحلام وتحدثني بقلنسوتها الحمراء وردائها الأبيض، صارت تسيطر على وجداني.

لم أرها بعد ذلك ولو لمرة.

ومضت الأيام.

///

في الصيف. الثالث من يوليو.

السماء غائمة والليل حالك شديد السواد، الكل يطفو على ملامحه الهم، يتشح بالسواد.

كثيرات هن من أتين يسألن عن نوع حلوى يصلح لمثل تلك الأيام ولم يجدن. كن يأملن بشيء يُنسهم ما آل الوضع إليه، من قلوب مرتاعة وآمال محطمة ووعود منسية، كأنها سيمفونية حزينة تليق بأوركسترا غزو الجنة لفانجليز.

///

شتاء آخر، هذه المرة أكثر قسوة. لكن عليك ألا تهتم، فهو يوم عيد لكثير من الناس. أورتاريو المسيح ل جورج هاندل وسلاسل النور مع أشجار الكريسماس تطوق المتجر من الخارج، أطفال كثيرون وعشرات الطلبات على كعكة الشكولاتة المحلاة.

كان يومًا جميلًا ومرهقًا بحق، إلى أن أتاني مستر عزيز آخر الليل مهرولًا بكرشه المتلجلج يصيح هلعًا وعلى وجهه أسمى أمارات الفزع:

ـ كريم. لقد حلت الكارثة!

///

أغلقنا المحل وصرنا نتشاور لساعات، الدقيق شح في السوق وحقول القمح في العالم أجمع هلكت، قال إن الأمر بدأ منذ أسبوع وكان حديث وكالات الأنباء العالمية تلك الفترة. لكننا غفلنا عنه.

قال أيضًا إن السبب كان حشرة جديدة لم يفطن إليها العلماء من قبل غزت الحقول فجأة ولم يكن هناك أي منذرات للأمر.

وفي الأخير أطرق رأسه قائلًا:

ـ لا مفر لنا الآن، علينا تصفية المحل.

إلتحمت أشلاء السحب بالخارج ودوى صوت الرعد مريرًا مع اختفاء

قرص القمر، ران الصمت فترة، انتفضت من مقعدي وصحت معترضًا:

ـ مستحيل.

ثم صرت أتجول بالمخزن وأتابع:

ـ ولِمَ نحتاج لدقيق القمح ثانيةً؟ نستهلك ما تبقى لدينا بعدها نستبدل دقيق الحمص أو الأرز به، كذلك سنعتمد على الحلوى منزوعة الدقيق، سنصنع منها أطنانًا. لكن أن نغلق المحل فهذا مستحيل

قلتها بشكل قاطع.

سألني منير:

ـ وهل سيقتنع الزبائن بذلك؟

أجبت:

ـ عليهم أن يقتنعوا.

عاد الصمت ثانيةً.

ربت مستر عزيز على كتفي ومال عليَّ وقال :

ـ ابتسامتك، مصدر رزق بالنسبة إلينا. لا تفقدها.

///

انتهى مخزون الدقيق بعد أسبوعين، تضاءل عدد الزبائن واقتصر على المرضى وعلية المجتمع والمجانين!

لم يعوض دقيق الحمص ما تركه في الكيك دقيق القمح.

أمطار الشتاء تهطل بغزارة على إيقاع سلم سول الصغير لموتسارت، أغلقت المحل باكرًا تلك الليلة التي انتويت الذهاب فيها للشاطىء المهجور، كانت الأمواج تنكسر بقوة على سطح الرمال الناعمة وقدماي تذرعان المكان الذي غلفه الضباب فجأة دون أن يتوقف هطول المطر!

مرت فترة من التفكير لم أهتم بحسابها.

تدني الأرباح أسفر عن انخفاض الأجور للنصف، قمنا بتسريح العاملين، وقللنا من منسوب المصابيح، القتارين الفارغة وضعناها في المخزن، فبدا المحل أوسع مما يجب.

أنفاس أحدهم تسري في مؤخرة رأسي، التفت مسرعًا وانتفضت للخلف.

كان رجلًا أشعث رث الثياب. لاحت ابتسامة غير مطمئنة على ثغره وهو يدنو مني ويقول بصوت هامس كالفحيح:

ـ سمراء اللون غابت، في وادي الروح تسري.

الأن تأكدت أنه أحد مجذوبين شارعنا ركزت نظري عليه فوجدته يغوص في عينيَّ هو الآخر، كسر صمتي بقوله:

ـ ما ترجوه بقلبك قد تبصره في غمضة عين.

سألت:

ـ وكيف؟

أجاب:

ـ بهذه...

وأعطاني قوقعة بحجم كف اليد أو أكبر قليلًا مثقوبة من الأسفل بثقب دائري أشار لي عليه قبل أن يكمل:

ـ هذا باب رزق.

ثم فتح القوقعة وتابع:

ـ أن تضع في هذه ما يحلو لك، يخرج إليك من الثقب دقيق قمح.

صحت فيه:

ـ أعطني إياها.

ومددت يدي بولهٍ لأنتزعها منه.

أبعدها عني بسرعة وأضاف :

ـ ثمة تضحية لكل شيء.

ـ اطلب ما شئت.

ـ ابتسامتك.

أسرعت الخطى للمنزل، وقد أخذت معي كومة من رمال الشاطئ لأجربها في القوقعة.

أمام المدفأة وفي غفلة من أهل البيت وضعت صحنًا أسفل القوقعة، ثم جعلت الرمال تملؤها، وصرت أنظر إليها وهي تتدفق بنعومة من الثقب على هيئة دقيق، تأكدت من مذاقه ورائحته أنه دقيق قمح، لم أستطع الابتسام فرحةً بهذا النصر لكن لا يهم؛ فصحن الدقيق هذا أغلى من أي شيء.

///

في الصباح الباكر، ذهبت للمحل، وقد لففت القوقعة في قماشة وضعتها داخل حقيبة أمسكتها بحرص.

هرعت للمخزن ووضعت الحقيبة على طاولة خشبية قديمة، ثم انتشلت بعض الأجولة الفارغة وأغلقت المحل واستأجرت سيارة تأخذني لشاطىء بعيد عن متجرنا.

هبطت من السيارة وركضت صوب الشاطئ وقد اتفقت مع السائق أن ينتظر، ملأت الأجولة على عجل ورفعتها على السيارة، ثم عدت للمخزن مرة أخرى، وفي خلسة حملتها للمخزن ونقدت السائق أجرته ثم أغلقت الباب.

ساعات قليلة وهاتفت مستر عزيز وأخبرته أن يأتني بعربة المصنع لينقل أجولة الدقيق السبع، فقال لي:

ـ دعك من هذا.

قلت:

ـ لوكنت مكانك لعجلت باستدعاء العربة.

لحظة صمت كانت كافية ليصدقني ويهلل:

ـ سأرسلها على الفور.

///

أيام جميلة بعد ذلك مضت، أعدنا العاملين، وعينا ثالثًا، عاد كل شيء أفضل مما كان، لم أفشِ سر القوقعة لأحد ولم يهتم مستر عزيز بالسؤال عن مصدر الدقيق؛ ما يهمه أنه موجود، أصر أن يدفع لي ثمنه فقبلت بنصف الثمن.

لم أرد استغلاله خاصةً في ذلك الوقت، حتى يعوض خسائره، افتتحنا فرعًا ثانيًا ثم ثالثًا، وازداد عدد العاملين وعينت مديرًا للفروع، وصرنا محتكري سوق الحلويات، وأغلقت محلات كثيرة أمامنا فدخلت شريكًا في المحل، لم يكن اعتمادي مقتصرًا على الرمال فقط في صناعة الدقيق، الأمر بدأ بالصدفة؛ لما نفد الدقيق فجأة من البيت وأردت صناعة مقدار منه فقطفت من أوراق الشجر، وفي مرة ضايقني أحد الزبائن لما طلب مني أن أصنع له تورتة الزفاف لكن بأسلوب غير لبق، فصنعتها له من حذاء قديم لي وماء عكر! كان كل شيء أضعه يصنع طعمًا مختلفًا، صرت أميز بين الدقيق الممتاز والجيد والرديء، وعلمت أنه كلما استخدمت شيئًا أثمن صنعت دقيقًا أروع، وهكذا فعلت.

///

كانت ليلة هادئة من ليالي الشتاء.

أنغام كارمينا بورانا لكارل أورف تموج في جنبات المحل، تسري نسمات البرودة بين خصيلات شعري أثناء دخول ثلاثتهم، فتاة محجبة وسيدة يبدو أنها والدتها وشاب، ابتسمت الفتاة ولم أستطع رد ابتسامتها لكنها بدت فرحة ودودة مألوفة بعض الشيء.

نادت والدتها:

ـ ياسمينا، اطلبي ما شئت لحفل الخطوبة وأنا سأتولى الأمر.

كانت هي، من أرقت عيناي واستولت على أحلامي لسنين، ذات القلنسوة الحمراء، اسمها ياسمينا إذًا، أخبرت العامل أن يهتم بطلباتها فمال عليَّ وقال هامسًا:

ـ خطيبها يريد مني أن أجهز لها هدية خاصة.

ـ اسأله متى الحفل.

ـ يقول غدًا.

ـ إذًا فليأتِ غدًا.

أومأ العامل برأسه وذهب وذهبوا بعدها.

انسابت بعض الدمعات على وجنتي، خشيت أن يظهروا، لذلك قررت الرحيل.

///

أردت أن أصنع لها شيئًا ذا قيمة، ليس كأي شيء، اشتريت ١٠٠ جرام من الذهب ووضعتهم في القوقعة، جهزت الحليب والبيض ومحسنات الكيك مع بقية المكونات، أشعلت سيمفونية قداس الموت لموتسارت،

وعلى نار ثائرة ومع صخب موسيقى الموتى، صنعت لأجلها أغلى قالب كيك.

///

ليلة العيد، كالعادة لم أقضها مع أهلي بسبب ازدحام الزبائن في المحل.
كان علي أن أباشر كل شيء خاصةً في ظل الأجواء المتوترة، لما أعلن جميع أصحاب المحال الأخرى إفلاسهم، المتاجر والمخابز والمصانع والأفران كلها أغلقت.
كثيرون طلبوا منا أن نعطهم مما نملك من الدقيق ولم نرضَ، وآخرون أطلقوا علينا الشائعات بأن ما نستخدمه من الدقيق هالك منتهي الصلاحية لكن دون جدوى.
صرنا محط أنظار الجميع وتهافتت علينا وسائل الإعلام والصحف، كانوا يريدون أن يعلموا من أين نأتي بالدقيق لكننا التزمنا الصمت، ولما لم يرضهم ذلك، كان تصريحنا الوحيد أننا نسعد الناس.
وهذا يكفي.

///

في الصباح، والشمس تغمر بأشعتها وجوه المارة مع رحيق الورود والأطفال تركض فرحًا، كنت قد استيقظت متأخرًا دون أن أنتبه للوقت، أسرعت الخطى صوب سيارتي غير مرتب الثياب ومنكوش الشعر، أدرت محرك السيارة وضغطت على دواسة الوقود وبأقصى سرعة كنت هناك، حشود كثيرة من الناس تلتف حول المحل لتحجب عني الرؤية، اخترقت جمعهم بصعوبة ووقفت أمام المحل، النار تضرم بشدة في كل أركانه وغمام الدخان تطفو ليلامس بألسنته صفحة السماء، مستر عزيز يهرول نحوي ويخبرني أن الفروع بأكملها قد احترقت في نفس الوقت، يتحاشى النظر إليَّ وهو يسألني عن ما تبقى لدي من مخزون الدقيق، لم يكن يعلم أني نسيت القوقعة بالداخل ليلة أمس، تتثاقل قدماي وهي تعود أدراجها للسيارة، أتهاوى على الفراش ثم أستيقظ قرب المغيب والريح تنساب برقة على أوجه المارة مع هدير أوراق الشجر، عيناي تحملقان في الأفق وأنا أرتشف من فنجال الشاي رشفة أخيرة أثناء جلوسي بالشرفة، أضع الهيدفون، الهاتف يرن، أسحب رمز الرد ليأتني صوت العامل في المحل ويسألني إن كنت أذكر الفتاة

والشاب اللذين جهزت لهما هدية خاصة، ثم يخبرني أنه لم يكن خطيبها، بل كان لأختها. والهدية كذلك، ثم أنهى مخابرته قائلًا:

ـ لقد فعلتها من أجلك.

ابتسمت بعد أن أغلقت الهاتف، وقد تأججت مشاعري من جديد، عادت الابتسامة ما إن فقدت القوقعة.

كانت ليلة موسيقية قصيرة لموتسارت.

***

ـ إنني يا أبي أخشى أن يُحطم الباب فوق أجسادنا الساكنة.

هكذا في ليلة هاج هواؤها، حتى كاد يقتلع الجدران حدث الفتى والده في قلقٍ مما يدور في أرجاء القرية منذ تنفسُ الصباح، وحتى زيارة القمر للسماء. طرقات عظيمة على الباب، جعلت الخوف يرقص في عيني الفتى، والأب هادئًا أرسل صوته:

ـ لا داعِ للخراب، إنني قادم إليكم.

وكشف الباب عن مجموعة من الرجال تحدث كبيرهم.

ـ لم نخطئ العنوان، منذ اللحظة الأولى تأكد لنا أنك من ذوي العقول المبعوثين لأجلهم، أحضروه.

في ظلمة الليل، وبين جمع الرجال تساءل الأب عما قيل من كلام، ماذا يعني أنني من ذوي العقول المبعوثين لأجلهم؟

وهناك في غرفة مجهزة بأفضل الأثاث، والخدمات، استقبلوه كرجل حرب عائد بسلام، الهواء نقي، والرائحة ذكية تسر الأنف عند استنشاقها، ولون أبيض تزهو العين برؤيته، أجلسوه وأوصلوا أصابعه

بأسلاك موصلة بأجهزة إلكترونية، وكذا هي رأسه لعمل الفحوصات اللازمة، والتأكد أنه الهدف المقصود.

ظل حائرًا في غرفته، الهادئة إلا من أطباء، ومتخصصين يأتون باستمرار لأخذ معلومات، وفحوصات، وغيرهم من أخصائي التغذية الذين قدموا له الطعام أوزانًا من جرامات.

ـ ما هذا، أين أكون؟

ـ لا تسأل إنك ها هنا، وسوف تبقى ها هنا.

ـ لا يعقل، لن أرضَ، لن أقبل.

تركوه، وخرجوا يتشاورون، إنه سليم، إنه يرفض اللامعقول، لنخبره أن ذلك لأجل الحفاظ عليه من العالم الخارجي.

يفكر في ابنه الذي لن يعرف له طريقًا منذ أخذوه، يدور في أنحاء الغرف، ويكتشف ما فيها، وفي أثناء ذلك دخل عليه طبيبان، ورجلٌ طاعنٌ في السن، لكنه يبدو بصحة جيدة، ركل كرة كانت بصحبته فحطمت زجاج النافذة وخرجت بها الناحية الأخرى، فركض لإحضارها، وترك ثلاثتهم.

ـ ماذا يحدث؟

ـ لا تقلق، واهدأ نراك ذا عقل رصين.

ـ ما الأمر، ماذا يدور، لمَ أنا هنا، أكاد أجن؟

تبادلوا نظرات الحرج، وأكمل أحدهم:

ـ جاؤوا بك إلى هنا لأمر جلل، ولن تترك هذه الغرفة حتى يُقضى هذا الأمر، اقبل فلا بديل لديك.

ـ وما هذا الأمر؟

ـ ستبقى هنا شهرًا كاملًا، نعكفُ في هذه المدة على توفير كامل الرعاية الصحية، والنفسية لك، وإبعادك تمامًا عن العالم الخارجي، أنت هنا في مصحة العقلاء. ما يهمنا أن يبقَ عقلك حاضرًا حتى يحين الموعد.

ـ مصحة العقلاء، مصحة العقلاء! الآن فهمت.

ـ لا تخشَ شيئًا، سيعوضك مستر جوهان ريمنسون بالكثير.

ـ الذي ركل الكرة؟

ـ نعم هو.

ـ هذا مستر؟

ـ نعم.

ـ أله أب؟

ـ نعم.

ـ أله أم؟

ـ نعم.

ـ خذوني إليهم.

ـ لا يمكن، لقد ماتوا.

ـ ماتوا وتركوا لي طفلًا بعمر ستين عامًا؟

ـ لا بديل.

أغلقوا الباب خلفهم، ولم تمضِ دقائق وجاء غيرهم، جلس أحدهم متوددًا، وقال:

ـ سنأخذ وقتًا قصيرًا وننتهي، حسنًا أخبرني، ما ناتج خمسة ضرب خمسة؟

ـ خمسة وعشرون.

ـ ما ناتج خمسة جمع خمسة؟

ـ عشرة!

ـ ما ناتج خمسة طرح خمسة؟

ـ صفر.

عظيم، ابتسامة رضاء على وجوه الممتحنين، قبل مغادرة المكان، قبل أن يستحوذ التفكير على رأس الرجل، نزيل الغرفة، صاحب العقل السليم.

ـ ماذا يحدث، كيف أحجز لحوزتي عقل سليم؟

توالت الأيام، والرجل يمكث بالغرفة منذ جاؤوا به إليها، استمرت فترة الفحوصات والاختبارات طيلة أسبوع كامل، بعدها واظب شخصٌ من طاقم الرعاية على تزويده بالطعام والشراب صباح، مساء.

وعندما حل الأسبوع الثالث بدأ طاقم الرعاية يلاحظ أشياء غريبة.

الرجل ذوالعقل الرصين استعان بقلم الملاحظات وسجل على الحائط.

ـ شيء ما يدفعني نحو الخلود. يحركني غريب في اتجاه الهاوية.

تقدم أحدهم وسأله إن كان بخير، فأومأ برأسه كي ينصرفوا من حوله، وفعلوا بعد أن أحسوا برغبته في ذلك، ولم يهتموا كثيرًا بما كتب.

في الأيام التالية دخلوا عليه، وجدوه مُلقى على كرسيه بلا حركة، لكنه في يقظة تامة، لم يتحدث، بل أشار إلى جهاز التدفئة، فنظروا، وقرأوا.

ـ حين يقبل المساء أسكن هنا، تسعدني زيارتكم، أنا بالداخل الآن، انتظركم.

بدأ قلق يتسرب إليهم، لكن أحدهم أكد.

ـ يستعرض... جنون مفتعل كي يخرج من هنا، دعوه ربما يرجع لرشده.

في مساء نفس اليوم تقدمت فتاة تحمل طبقًا أُعد له مُحملًا بأشهى أنواع الفاكهة، وقدمته إليه، فسأل:

ـ ما لون البرتقال؟

ـ أصفر.

فأمسك بالموز، وطرحه على الأرض.

ـ لا أرغب في البرتقال، ما لون التفاح؟

ـ أحمر.

وأمسك بمكعبات البطيخ ودفعها إلى فمه.

ـ أنا أحب التفاح كثيرًا.

تغيرات عظيمة كان عليهم إخبار الطبيبين المعالجين، وقد أقبل الأسبوع الأخير، فأتوا، وسألوا عن السيد جوهان ريمنسون فأخبروهم أنه في الكرة في ممر مصحة العقلاء، فذهبوا إلى هناك، ولم يجدوه، فتحوا غرفة الرجل ذي العقل الرصين، وقرأوا.

ـ أخبرتهم أني أنتظرهم بداخل جهاز التدفئة، ولم يأت أحد، وأنا لا أطيق الانتظار، تسعدني صحبة المستر ريمنسون إليه، سنستقل السلك

الكهربائي إلى هناك.

توقيع، الرجل ذوالعقل الرصين.

وبذلك سجلت مصحة العقلاء أولى، وثاني حالات الوفاة صعقًا بالكهرباء.

***

أنوف لا تَشُم. أسماء عبد الراضي

عندما رأيته كان أول ما أثار انتباهي رائحة كريهة تنطلق من فمه قد ملأت المكان، ولمَّا دققتُ النظر في وجهه، عرفته.

شهاب!

نعم، هو بوجهه النحيف الأبيض، وقامته الطويلة، قمتُ بفحصه، لم تكن حالته خطيرة، كسرٌ في ساقه الأيمن وبضعة خدوش متفرقة في جسده، ملامحه ورائحته أعاداني ـ قسرا ـ إلى تلك الأيام، أيام كنت أسكب زجاجة العطر كلها فوق ملابسي "سأفعل حتى وإن تعرضتُ لغضبِ أمِّي" قلتها لنفسي بصوت مسموع، بعد أن أتممت إفطاري، دخلت أمي تكمل عملها في المطبخ، تسحّبت إلى الغرفة، أمسكت زجاجة عطرها، تأملتها بشغف "حتما لن يستطيعوا مقاومتك"، سكبتها فوق ملابسي، وانطلقت طاويًا درجات السلّم دون أن أودّع أمي كما تحبّني أن أفعل كل يوم.

ـ اجلس في آخر مقعد.

ـ هذا مكاني!

ـ صلاح مجاري، قلت لك عُد للمقعد الأخير.

دفعني شهاب بقوة وهو يقولها، وسط قهقهات ساخرة من بعض التلاميذ، فجلست وحدي في المقعد الأخير، تؤنسني دموعي الحبيسة في عينيّ كعصفور كبّل الخوف جناحيه!

كان أبي عاملا على إحدى سيارات الصرف الصحيّ، رغم أني لا أخرج للعمل معه إلا في الإجازة، لكن زملائي يؤكدون لي أن رائحة المجاري لا تتركني، لقبني شهاب بـ (صلاح مجاري)، تبعه في ذلك ثلّة يتزعمها، بدأت أُغرق ملابسي بالعطر، جرّبت منذ يومين عطرًا وجدته في معطف أبي، لكنه لم ينفع بشيء، أغرقت اليوم ملابسي بعطر أمي الأخاذ، لم يلتفت إليه أحد، "لا أدري لماذا لا يشتمّون رائحة عطري، بينما تشتم أنوفهم الظالمة رائحة عمل أبي!"

في حصة العلوم، اتهمني زميلي بالسرقة، اشتكى للمعلم الذي تربّد وجهه، فصاح بغضب وهو يجذبني من ياقة قميصي:

ـ هل ستصبح حرامي يا ابن إسماعيل؟!

عاقبني المعلم، وعاقب زميلي أيضًا، أربع ضربات طرقعت على كفينا بجلدته الغليظة، فاضت دموعي، لم تؤلم ضرباته الأربع كفي بقدر ما

مزّقت إهانته ما تبقى من كرامتي أمام زملائي.

لا ألتقط أنفاسي إلا في حصة الدراسات، تذكّرني أستاذة عالية بأمي، حنونة مثلها، مذ أخبرتها ذات يوم بأمنيتي في أن أصبح طبيبًا لا تناديني إلا (دكتور صلاح)، يومها سخر مني زملائي، كان أشدهم سخرية شهاب الذي يفتخر دائما بوالده الثري وأمواله التي لا تنتهي، فأعطته الأستاذة عالية درسًا في مكارم الأخلاق واحترام الآخرين!

ـ أمي لا أرغب في الذهاب إلى المدرسة مرة أخرى.

لطمت وجهها وهي تصيح:

ـ وتتخلى عن حلمي وحلم أبيك؟!

ـ من الغد سأخرج للعمل مع أبي.

ـ أخبرني يا ولدي ماذا حدث؟!

لم أجبها، آثرت الصمت، بكت أمي كثيرا، ولما عاد أبي أخبرته، لم يأخذ مني جوابا يرضيه، فذهب إلى المدرسة.

لم أستطع أن أخبره بما فعله زملائي معي اليوم عندما تسربت مياه الصرف، فأغرقت أمتعتنا في فناء المدرسة، لم أخبره بكلامهم الذي مزق طمأنينتي، لم أخبره بما فعله شهاب حين دفعني في الوحل الذي تسببت

فيه المياه، قائلا في سخرية:

ـ هذا من يجيد التعامل معها.

لم أخبره بضحكات أحد المعلمين حين سمع جملة شهاب، ولم أخبره أيضا بعصا معلم التربية الرياضية التي هوت على كف شهاب عقابا له على فعلته، لكنه عقاباً لم يشبع قلبي المَوْتُور!

أخبرته أستاذة عالية بكل ذلك، بفضل تشجيعها استطعت استكمال الطريق.

أفاق شهاب من سكرات آلامه، تُرى هل سيعرفني كما عرفته؟ نظر في وجهي، ثم راح يتأمل ساقه المعلقة أمامه، وضع يده على جبهته، محاولا تذكر ما ألمّ به، ولما أعياه التذكر، نظر إلى متسائلا:

ـ ماذا حدث، ما الذي جاء بي إلى هنا؟!

ـ حادث بسيط، كنت تقود السيارة بسرعة جنونية!

نظر إلى بتمعن، ثم فرك عينيه، أجال بنظره في الغرفة قبل أن يقول:

ـ أنت، أنا أعرفك جيدا، صلاح، نعم، أنت صلاح، صلاح مجا...

***

عيون الأمل . إيمان زهدي أبو نعمة

فلسطين

أعجبتني ملامحها الشقراء الجميلة، وبشرتها الثلجية الناصعة كبتلات الياسمين، وحمرة وجنتيها الفاتنة، وغرة شعرها المنسدلة بنعومة إلى وسط وجهها، بينما تربط ما تبقى من شعرها برباط مطاطي أبيض اللون، كنتُ أحب مراقبتها دائما، حتى في الوقت الذي أكون به منهمكةً في شرح الدرس، فأراها وهي تلبس نظارة طبية ذات عدسات غليظة ترتكز فوق أنفها، فتزيحها إلى الأعلى بين الفنية والأخرى، بينما تجلس على المقعد الأمامي من الفصل في الجهة المقابلة للسبورة ليتسنى لها رؤية كل ما أكتبه، كانت تنفذ ما أشرحه بحرفية تامة، فترفع يدها عند كل سؤال، وعندما يقع عليها الاختيار تقف لتجيبه بكل طلاقة، بينما تُديم الرمش بعينيها الزرقاوين لضعف شديد في بصرها، فمن يُبصرها يوقنُ تمامًا أن الجمال حقًّا لا يكتمل، وعندما كنت أطلب منها قراءة الدرس كانت تعتدل بثبات على مقعدها، وهي تتلمس الكتاب الكبير الذي بين يديها، تتحسس بأناملها الصغيرة الرموز البارزة على الورق المقوى، ثم تقرأ بكل براعة متقنةً لمخارج الحروف وضبط نهاية الكلمات، وبعد

انتهاء الدوام تجلس في الفصل تنتظر والدتها كي تأخذها من المدرسة، لتحمل عنها حقيبة كتبها الكبيرة، التي تزدحم بالكتب المنقرة على طريقة برايل.

انتقلت رغد لمدرستنا هذا العام، بعد أن قضت المرحلة الابتدائية وهي تدرس في مدرسة المكفوفين؛ وذلك لأنها تبصر الأشياء بشكل جزئي، إلا أنها تُحس بغشاوة على عينيها لا تزيلها عنها النظارة الطبية، ولكن هذا أهون بقليل من الذين يرون العالم ظلامًا دامسًا، ورغم ما تعانيه إلا أنها طالبة متميزة عن قريناتها المبصرات لشغفها بالعلم، وشدة تعلقها بالكتب، فضلًا عن ذكائها ونباهتها، فكلما أثنيتُ على اجتهادها غزت وجنتيها حمرة فاتنة، حتى تبدو كأنها تطير فرحًا، أو كأنها تحلق فوق سحابة قطنية.

جاءتني اليوم وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة خجولة فقالت بصوت رقيق:

ـ أريد أن أزور مكتبة المدرسة.

فمسحتُ على شعرها الأشقر الحريري وقلت لها:

ـ ولكن المكتبة في الطابق الثالث وربما سيكون ذلك مزعجًا لك لأنك ستكونين مضطرة إلى صعود أدراج الطوابق الثلاثة وصولًا للمكتبة.

فقالت وقد لمعت عيناها:

ـ إنها أمنيتي يا معلمتي.. أريد أن أرى كيف تصطف الكتب على الرفوف تمسك ببعضها البعض بكل حب، وكأنها سلسلة من ذهب.

أعجبني إصرارها وحماسها فاستجبت لأمرها وأمسكت بإحدى يديها الناعمتين، بينما تركتُ الأخرى تتكئ على الأعمدة المثبتة على جانبي الدَرج.

كانت تمشي ببطء تتأمل اللوحات المعلقة على الجدران، فتتوقف عند كل واحدة منها لتقرأها، ولما وطأت قدماها المكتبة انفرجت أساريرها فرحًا، وعبرت عن ارتياح عميق يملأ صدرها، ويمسح أدران اليأس التي علقت في ثناياه، وقد اعتلى روحها الرجاء والأمل، حتى تمنت لو أنها تستطيع قراءة كل تلك الكتب بعينيها كما يقرؤها الجميع، ولكنها لا تستطيع القراءة سوى بكتابة برايل أو بالكتب ذات الخط الكبير جدًّا، كان شغفها بالقراءة لافتًا مما استوجب عليّ أن أبحث في أرجاء المكتبة عن كتب كبيرة الخط، حتى وجدت مجموعة منها معدودة على أصابع

اليد الواحدة، فأعطيتها إياها فإذا هي تحتضنها وتمسكها بكل حب، وكأنها تريد لِعَقلها أن يَلتهمها دفعة واحدة.

جلست بهدوء على أحد كراسي المكتبة تمسك أحد الكتب، وجلستُ بجوارها أحتضنُها بعينيّ وهي تُبحر في أعماق الكتاب بِنَهم، فأرى بريق عينيها الجميلتين من خلف النظارات ذات العدسات السميكة، وأبصر وهج ابتسامتها وهي تحلق بين سطور الكتاب، بينما تحفها طاقة إيجابية رغم هدوئها، وكأنها نبع عذب لا يركد ولا يتكدر، شعرتُ بها وهي تتمنى لو أنها تمتلك تلك القدرة العجيبة التي تجعلها تحلقُ مع أحداث القصص فتبني قصرًا لسندريلا، وتعيش مع الأقزام السبعة، ثم تتسلق على خصلة شعر روبانزل المجدلة حتى تصعد قلعتها، ثم تهرب من الساحرة الشريرة عبر البوابة السحرية، لتغوص في أعماق البحر مع حورية البحر آريل، ثم تفرك مصباح علاء الدين وتسافر عبر بساطه السحري، فتجوب بلاد العجائب مع أليس، وبعدها تخلد للنوم مع الأميرة النائمة، شعرتُ أن ثمة إحساسًا جميلًا ترغبُ في أن تجربه وتحياه بكل تفاصيله، فكم تتمنى لو أنها تداعب حروف الكتب بعينيها دون أن تضطر أن تتحسس الرموز بأناملها.

انتهى وقت السعادة المكتبية، فجمعتُ لها مجموعة من الكتب ذات الخط الكبير كي تستطيع أن تقفز بين سطورها، أخذت تتشكرني لأنني أتحت لها فرصة الدخول للمكتبة، حتى أنها تمنت لو تستطيع أن تخبئ هذه اللحظات السعيدة التي قضتها بين جموع الكتب، مثلما نجفف نحن الورد لنحتفظ به عطرًا للأبد، وربما تمنت لو أنها تُسكت عقارب الزمن كي تبحر بين الكتب أكثر وأكثر.

وبينما نحن ننزل على الدرج وقد تلاصقت أيدينا، أخذت تحدثني قائلة بنظرة فلسفية عجيبة وحزن مكتوم:

ـ أتعرفين يا معلمتي، إنني أحاول أن أرسم مستقبلي فتستعصي عليّ الصورة وتبهت ألوانها، حتى أنني عاجزة عن التفكير فيه، فكلما فكرت بأمر تربصت بي العراقيل توقفني عن المسير قُدمًا أمام أحلامي، وكأن تحقيقها أضحى معجزة بسبب ضعف بصري.

فسألتها بكل شغف:

ـ ماذا تريدين أن تكوني في المستقبل.

فأجابت وهي تحلق ببصرها نحو السماء ثم تخفض رأسها وتعدل النظارة المتأرجحة على أرنبة أنفها ثم تدير وجهها نحوي قائلة:

ـ أريد أن أصبح معلمة.

ثم سكتت لبرهة وتابعت القول:

ـ تعجبني وقفة المعلمة في الفصل وثباتها، وقدرتها على الشرح المتواصل وهي تتنقل بين الطلبة بكل حب، تعجبني وهي تمسك الطباشير وتخطط على السبورة بأجمل الألوان، وأشد ما يعجبني فيها قدرتها على التأثير في طلابها، ونظرة الاحترام التي يحفونها بها.

احتضنتُها وطبعتُ قُبلة على رأسها وقلت لها:

- ستكونين معلمة متميزة يومًا ما إن سعيت نحو حلمك بكل عزيمة وإصرار، ولن يحول شيء دون تحقيق حلمك.

ثم تركتُها تجلس على المقعد تنتظر أمها لتأخذها إلى المنزل، بينما مضيتُ أفكر فيها وأنا أراها تربض على حدود المعاناة بكل إصرار وعزيمة، تشدو التألق والتميز رغم ضعف بصرها، فتغزل من خيوط الأمل شمسًا تضيء طريقها، لتحقق أحلامها الشاهقة، فلديها ما يكفي من الأمل كي تمضي في الحياة حتى نهاية الحلم.

***

"قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيّ".

عدّلت الممرضة من وضع المحقن فى كفه المرتخية وهى تراقب قطرات المحلول وهى تتساقط ببطء باتجاه وريده، وعادت تتأمل ملامحه التى تشى بوسامة بائدة أخفتها ندوب الزمن، فلم تترك سوى أطلال تقول إنه كان وسيمًا ذات يوم، بينما تساقط الشعر عن مقدمة ووسط رأسه كاشفًا عن صلعة جرداء لامعة، تنهدت الممرضة وهى تتطلع إليه بإشفاق وهى توشك أن تخرج من الغرفة لتجد نفسها فى مواجهة زميلتها التى جاءت لاستدعائها قائلة:

ـ ما بكِ يا سعاد؟ كل هذا الوقت لتعديل المحقن؟

أجابتها سعاد وهى تنظر إليه وتتأكد من انتظام أنفاسه وقالت:

ـ لا ولكن...

ـ ولكن ماذا؟ ما بك؟ هل تعرفينه؟

ـ أشعر نحوه بشفقة بالغة، فقد كان ذلك الرجل ذات يوم من المشاهير وعلية القوم.

شعرت صديقتها بالفضول وسألتها قائلة:

ـ هل كان ممثلًا؟

ـ بل كان كاتبًا.

ـ لقد أثرتِ فضولى يا فتاة، احكِ لى كل ما تعرفينه عنه.

ـ اسمه نادر السمرى أو السامرى، لا أعرف على وجه الدقة، وقد كان كاتبًا معروفًا يتابعه الكثير من القراء وأنا منهم.

أخذت تحكى لزميلتها كل ما تعرفه عنه دون أن تدرى أن صوتها قد تسلل ضعيفًا واهنًا إلى أذنى نادر مدغدغًا خلايا ذاكرته لتعيده إلى أيام بعيدة، أيام كان فيها ما يزال شابًا، ومغمورًا.

" قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ".

أن تكون كاتبًا موهوبًا لهو أمر يدعو للفخر بلا شك، علمت ذلك منذ الوهلة الأولى وعلمه مَن حولى، نادر السامرى كاتب رائع، هكذا يردد الجميع، وهكذا آمنت أنا، لذا فقد كرّست حياتى للقراءة، أنهل منها ولا أرتوى أبدًا، وأكتب ولا أملّ أبدًا، أتحسس أولى خطواتى فى عالم الكتابة الأدبية، فأكتب فى كل مكان يتجمّع فيه بعض القراء، أعترف أن الأمر لم يكن بهذه السهولة، فقبل ظهور ذلك الموقع الأزرق الشهير؛ كنا نكتب

فيما يسمونه بالمدونات، ونجلس بالساعات أمامها لنعرف عدد زيارات المدونة ومَن قرأ لنا، كنت أشعر بسعادة بالغة حين يُظهر لى عدّاد الزيارات رقم اثنين أو ثلاثة، فذلك معناه أن كلماتى قد وصلت لشخصين أو ثلاثة، يا له من إنجاز، ذلك الشعور بالنشوة العارمة أن أفكارك قد استقبلها عقلان أو أكثر، ثم أتى العملاق الأزرق بحقبة جديدة واعدة، ستصل كتاباتى إلى عدد أكبر من الناس، المستقبل مشرق كما تعلمون، وبعدها نشرت روايتى الأولى التى جمعت فيها خلاصة فكرى وقد حققت نجاحًا معقولًا إلا أنه لم يرقَ أبدًا لمستوى النجاح الذى تحققه الكتابات التافهة، لتجتاحنى موجة هائلة من الإحباط، وقد ارتسم فى عقلى طريقان لا ثالث لهما، أن تكتب ما له قيمة ولتعش مغمورًا وتموت منسيًا أو لتكتب ما يحتاجه السوق فتنال المجد والشهرة والمال، كان الخيار مريرًا بحق.

"فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا".

أنا أعرف ذلك الخليط من الهراء الذى يمكن أن يجعل من كتابى الأكثر مبيعًا، عندك مثلًا مزيج الرومانسية المفرضة بنكهة الدين الوسطى، أو مزيج الجنس والإلحاد وهومضمون النجاح إلا أنه لم يعد مستساغًا فى

الآونة الأخيرة، ثم مزيج البحث عن الروايات التاريخية الضعيفة والآراء الشاذة المهملة التى لا تستند على أى أساس علمى ومحاولة تصديرها على أنها الحقيقة التاريخية أو العلمية الغائبة، الحقيقة أننى أتقنت كل هذه التوليفات، بل وابتكرت العديد من التوليفات الجديدة التى جعلت أسهمى ترتفع بشدة لدى دور النشر، وانهالت علىّ العروض من كل جانب، لقد صارت الحياة رائعة، إلا أن تلك الخلية الخبيثة التى تقبع فى ذلك الركن القصى المظلم من قلبى كانت ترفض باستمرار ما حدث، وتظل كلما حان وقت النوم تنبض لتذكرنى بتلك العقول التى أعمل كل يوم على تسطيحها وتدجينها وتزييف وعيها بحجة أنهم يريدون ذلك ولا تستسلم إلا حين أخبرها انه منذ بدء الخليقة والناس تجتمع على العاهرة أكثر مما تجتمع على المفكّر.

وحدها جنازة ذلك الكاتب أثارت اهتمامى، وربما شئ من الحقد بداخلى، فرغم كونى أكثر منه شهرة وشبابًا، وكتاباتى أكثر منه مبيعًا إلا أن تلك الهالة من الإجلال التى أحاطه بها قراءه ومحبيه جعلتنى أقارن بينى وبينه فى قرارة نفسى، ولم أستطع مواجهة ذاتى بنتيجة المقارنة، وليتنى فعلت، فلربما أدركت ذلك المصير الذى صرت إليه الآن بعد

فقدت كتاباتى رونقها واستنفذت كافة التوليفات، وظهر جيل جديد من الكتّاب أقدر منى على تسطيح العقول وجذب المراهقين، بيد أننى اكتسبت مؤخرًا ذلك اللقب العامىّ "دقّة قديمة"، لذا لم أجد حولى حين أصابنى ذلك المرض اللعين سوى أسرتى وقلّة من أصدقائى، بينما آلاف القراء والمتابعين الذين كانوا ينتظروننى بشغف قد اختفوا الآن عن الساحة، وغابوا عنى بعد أن ساعدت فى تغييب وعيهم.

"...وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي".

***

ـ يعني خلاص هتسافر؟!

قالتها وعيناها تلمعان بالدموع التي تحاول كتمانها، ولكن لا مفر من البكاء، مهما حاولت الصمود ستخونها دموعها في أي لحظة من اللحظات.

إنها لا تتصور أن يتركها ليسافر إلى مستقبل مجهول كي يحاول بناء مستقبل لهم هما الاثنان ليعيشا معًا تحت سقف بيت واحد؛ فهي ساذجة لا تدرك أن في الحياة أشياء لا يستطيع للحب أن يجعل صاحبه يتملكها.

الحب يستطيع أن يجعلك تتملك قلوب الناس، ولكن من الصعب أن يملكك بيت صغير لتعيش فيه مع شريك حياتك.

قالت جملتها وهوليس في دنياها، فهوسارح في ملكوت آخر لا يدري على ما هومقبل وما الذي سيقابله؟ كل ما يعلمه أن المركب ستتحرك في اليوم التالي من ميناء الإسكندرية للاتجاه نحوإيطاليا. ولم يقاطع تفكيره سوى لسانها وهويخاطبه مجددًا:

ـ أنت معاي؟!

نظر لها وهويتصنع الابتسامة رغم الوجع والخوف الذي يظلل روحه من الداخل ويملؤها، يلعن تلك الظروف ألف مرة، والتي فرضت عليه الرحيل وتركها بمفردها، فهولم يعد لديه في الدنيا أحد سواها منذ وفاة أمه، وهي تظاهرت بابتسامة مصطنعة مثله حتى تخفف عنه.

لم يمر وقت كثير حتى قاما وخرجا على وعد منه بأنه سيعود مجددًا ليكملا حياتهما معًا ولن يفترقا مجددًا بالتأكيد.

في صباح اليوم التالي سبقها هوإلى الميناء حتى لا تنظر إليه في تلك الحالة المأسوية، فلحقت به في سيارة أجرة استقلتها لتلحق به، وكانت أغنية "يامسافر وحدك" في راديوالسيارة، ولكنها لم تكن مهتمة بما يدور من حولها، كل ما تريده أن تلحق به.

لكنها للأسف وصلت متأخرة والسفينة تتحرك، فلوح لها بيديه واختفى سريعًا، وعادت هي الأخرى للسيارة لتعود على أنغام الأغنية وهي تقول:

"يا مسافر وحدك وفايتني، ليه تبعد عني وتشغلني".

***

العيادة . حسن عبد الرحمن

عندما هممت أن أكتب رسالة، وكانت ساعة الكمبيوتر الذي أجلس عليه تشير إلى الواحدة والربع بعد منتصف الليل، كانت الرسالة لصديق لطلب معين، ولكني كلما كتبت كلمة أجدها تتحول إلى كلمة أخرى، أمحوالجملة وأكتبها من جديد فتتحول إلى نفس الكلمة وهي، ستجدني من خلفك، أكتب الكلمة فتتشابك الحروف مكونة نفس الجملة أو جملة قريبة المعنى منها.

بدلت مكاني وذهبت إلى التراس حيث يوجد هناك كرسي هزاز كنت قد ورثته عن جدي العزيز وهذا الكرسي له حكاية لسنا بصددها الآن.

ـ من أنا؟

ألم نتعرف منذ قليل؟ لم نتعرف؟! أنا الدكتور محمد المانع دكتور أمراض عصبية ونفسية، وعندي عيادة في أطراف البلدة التي أسكن بها وقد ورثتها عن جدي العزيز، ولكني أذكر أننا تعرفنا ياسادة هنا منذ لحظات، عمومًا ها أنا عرفتكم على نفسي، أرجومنكم عدم النسيان مرة أخرى، أين كنا؟ نعم، نعم، آخر مرة ذهبت إلى التراس وجلست على

كرسي جدي الهزاز، وأغمضت عيني، ولكني سمعت صوت الحاسوب برسالة الويندوز المشهورة والجهاز مضاء مرة أخرى.

ألم أغلقه منذ دقائق؟ انتفضت من مكاني من على الكرسي وتركته يصدر أزيزه في حيز الصمت. ودخلت مسرعًا إلى الحجرة، فوجدت لوحة المفاتيح تتحرك وتكتب على الكمبيوتر خاصتي، وكرسي الحاسوب يبعد نصف متر عنه، وضعت يدي في فراغ الكرسي لعل أحدهم يجلس عليه، ولكني لم أجد أحدًا، لكني شعرت بسخونة في ذراعي وتنميل بسيط وبعض من الكهرباء الخفيفة، ثم سقطت على الأرض مغشيًا عليّ.

أفقت على صوت كاد أن يحطم باب العيادة، وجدت أمامي سامي، مريض عندي يتسم بالهدوء الشديد دمث الخلق، كثيف الشعر فوق عينيه نظارات طبية، ولكن سامي كان هائج عصبيًا رغم إنه مريض هادئ جدًا، وسبب هياجه قال لي إنه يقف على الباب منذ ثلاثة ساعات وأنا لم أفتح له.

سألته:

ـ ولماذا لم تذهب؟ أليس من الجائز أن أكون خارج العيادة طالما لم أفتح لك الباب؟

لكنه قال إنه كان متأكدًا إنني بالداخل، ولما سألته: كيف عرفت؟ قال: شاهدتك تجلس على الكرسي الهزاز وتتحرك به، ورغم ذلك لم أفتح الباب فظننت أنك تضع سماعات في أذنك، وأؤكد لكم ياسادة إنني كنت ملقي على الأرض، ولكنني اكتشفت شيئًا جديدًا في شخصية سامي، ألا وهي الصبر، وشيئًا آخر وهو العصبية، لأن هاتين الصفتين عكس شخصيته تمامًا، إذًا أنا دكتور جيد لأنني عالجت سامي من هلاوسه النفسية، وأصبح شخصية لا تتسم بالبرود الشديد. ولكن فجأة وبدون مقدمات دخل علينا الشيخ محروس بسمته الهادئ وصوته الجهوري في نفس الوقت، وقبل أن أسأله ما الذي أتى بك في ساعة غير ميعاد الكشف، قال وهو مندهش ألف سلامة لك يا دكتور لماذا كنت تنام على الأرض منذ خمسة دقائق؟ نظرت إلى سامي ثم وجهت حديثي إلى الشيخ محروس، لكني يا محروس كنت أجلس فوق الكرسي الهزاز منذ ثلاثة ساعات، قاطعني محروس بشدة وقال: لا والله؟! أنت كنت راقدًا على الأرض، وأنا تخيلت أنك تلعب يوجا أوتجرب نوعًا جديدًا من العلاج، أفقت من دهشتي: نوعًا جديدًا ويوجا؟

لكنه قاطعني مرة أخرى وقال: لكن الكرسي الهزاز كان يتحرك فعلًا

وكأن أحدًا يجلس عليه، فقلت لهم: لا عليكم سأرى موضوع اليوجا هذا، أقصد الكرسي، وهيا نبدأ جلستنا الأسبوعية، فباغتني محروس: هل سنبدأ قبل أن تأتي نيرة؟

فقلت له: ومن تكون نيرة؟ رجع الشيخ محروس إلى الخلف وجلس على كرسيه بسرعة وأعد كرسيًا بجانبه ورحب بمخلوق بجانبه وعلى ما أظن أنها نيرة، جاءت لتجلس معنا في الجلسة النفسية الأسبوعية، فهي جلسة يتبادل فيها كل المرضى الأحاديث والمشكلات الخاصة والعامة، وإن كان الشيخ محروس استدعى من وحي خياله زوجته التي قتلها بالخطأ منذ ثلاثة أعوام، فلا بأس من ذلك، ولم تمر إلا خمسة دقائق وقد امتلأت الكراسي المرصوصة على شكل مربع ناقص أحد أضلاعه من المرضى، ولمدة ساعة كاملة تبادلنا الأحاديث الكثيرة وكانت الجلسة مثمرة.

بعد الجلسة توجهت إلى الترعة الموجودة أمام العيادة، وأسندت ظهري إلى شجرة الصفصاف التي زرعها جدي منذ زمن بجوار الترعة، كانت الليلة حالكة الظلام ولا تخلوإلا من أصوات الضفادع والصراصير وبعض الحشرات، ولكني وجدت على صفحة الماء حركة غير عادية فوق الماء، ثم خرجت نار ومن بعدها كلمة انظر خلفك، الكلمة مكتوبة

بخط ركيك فوق صفحة ماء الترعة، وبدل من أن أنظر خلفي وجدتني أهرول مسرعًا إلى عيادتي، ولأنني أحصي عدد درجات السلم فصعدت الدرج بخفة حتى وصلت إلى حجرتي وأغلقت الباب جيدًاَ، وأسندت ظهري إليه وأنفاسي تكاد تقطع من خوفي الشديد، ثم أحسست بيد تتلمس كتفي وشممت رائحة كنار ملتهبة أو رائحة لحم شواء، وأنا مازلت مستندًا بظهري إلى باب الحجرة لا أقوى على الحراك، أكاد أدخل في حلق الباب إن استطعت، ولكن وجدت يدًا بيضاء تخلومن الدماء تماماَ، تخترق الباب من خلفي وتجذبني مرة أخرى خارج الحجرة، وتلقى بي على درجات السلم، فتكورت وتدحرجت إلى الأسفل، وانتهى بي المطاف إلى حائط واصطدمت به لأجدني فوق السرير بحجرتي، فحمدت الله إنه كان حلمًا.

لكني لم أقوى على تحريك رقبتي، وكانت رأسي تؤلمني بشدة، تحسست رأسي لأجد بها دماء حديثة، ولكني شممت أيضًا رائحة الشواء، كانت الرائحة تأتي من اتجاه التراس، تحاملت على نفسي وقمت من مكاني لأكتشف أن قدمي وظهري بهما التواء أيضًا، ولكني نجحت أن أصل إلى التراس بمنتهى الصعوبة، ونظرت إلى الترعة وجدت سيدة تقف أمام

شجرة الصفصاف وتشوي لحما، حاولت أن أرى وجهها، لم أستطع لأنها كانت تعطيني ظهرها، ففضلت أن أنزل إليها لأعرف ما قصتها، اقتربت من السيدة بخطوات رتيبة أقدم قدمًا وأؤخر أخرى، ولكن في الحقيقة ما جذبني إليها ليس معرفة من تكون، لكن كانت رائحة الشواء هي التي تجذبني، وكأن يدًا خفية تدفعني وتسير بي إليها دون أية مقاومة مني، قربت منها كثيرًا ولم تعطيني الفرصة، التفتت فجأة بوجهها الشاحب الضارب إلى الأزرق وتجويف عينيها فارغ تماما من محجريهما، وشعرها الأبيض ينسدل على وجهها في منظر ينخلع له قلبك، ثم أمسكت بكتفي وشعرت أن أظافرها تغوص في عظامي وتكاد تخلع ذراعي.

ولم أفق إلا على يد سامي وهو يمسك بكتفي وأنا ملقي على سريري في عيادتي، وهويحاول أن يهدئ من حالي، انتفضت من فوق السرير وقلت له:

ـ ماذا حدث وما الذي أتى بي إلى هنا؟

فقال:

ـ لي خمس دقائق أحاول أن أخرجك من حالة التشنجات وأنت نائم ولم أفلح إلا عندما أمسكتك من كتفيك، لابد أنك كنت في كابوس فظيع.

فقلت له:

ـ كابوس؟! نعم نعم وما رائحة الشواء هذه؟

قال:

ـ إنها آتية من الخارج فهناك سيدة تشوي خروفًا أمام الترعة.

سألته:

ـ عند شجرة الصفصاف؟

قال:

ـ نعم وكيف عرفت؟

قلت له:

ـ لا عليك ياسامي لا عليك. لكن الحمد لله ياسامي لقد شفيت تمامًا من المرض الذي كان يعتريك.

فقال سامي في حبور ونبرة سعيدة:

ـ الحمدلله يادكتور ولكن ما هو المرض بالضبط الذي كان يعتريني؟

قمت من فوق السرير وفي حركة مسرحية كأني ممثل على خشبة المسرح أجوب الحجرة ذهابًا وإيابًا، وشرحت له طبيعة المرض؛ فقد كان سامي مريضًا بالفصام الذهني أوالشيزوفيرينيا، فهومرض اضطرابات سلوكية

إلى جانب أعراض مرض الذهان الذي يفقد فيه المريض اتصاله بالواقع، ويبدو العالم له وكأنه خليط من الأفكار والصور والأصوات المربكة؛ ينتج عن هذا تغير مفاجيء ومروع في السلوك يسمى "نوبة ذهانية"، عندما انتهيت من الشرح المبسط، وقلت لسامي نبذة عن مرضه، رفع سامي يده وصفق لي بقوة شديدة وحياني من كل قلبه، فقد أعجب بي وبطريقة شرحي للمرض الذي يعتريني أنا، وقال لي:

ـ أنا أعالجك منذ حوالي السنة تقريبًا يا محمد، ولم أتخيل أنك ستفهم حالتك جيدًا بهذه الدرجة. برافو عليك يا مانع، ولكن فهم حالتك ستعجل حتمًا بشفائك شفاءً كاملا.

في تلك اللحظة دخل من باب الحجرة عم شحاته فراش العيادة وكان يحمل بين يديه لافتة قد أتى بها من عند الخطاط، وطلب من الدكتور سامي مراجعتها وتسلمها حتى يعلقها على باب العيادة، راجع الدكتور سامي اللافتة جيدًا وراجع اسمه الذي كان مكتوبًا قبل ذلك بالخطأ، وقرأ الاسم بصوت واضح، الدكتور سامي شرابي أستاذ الأمراض النفسية والعصبية، ثم طلب من شحاته تعليقها فوق باب العيادة؛ فقد كان الدكتور سامي هو الدكتور المعالج لحالة محمد المانع الذي يظن أنه

هو الدكتور النفسي المعالج، ولأن عنده مرض الفصام فقد كان يتخيل كل يوم أنه هو الدكتور المعالج، وكان يتخيل أنه يرى امرأة على هيئة جنية أو بعض الهواجس، ولكنه حتمًا في طريقه إلى العلاج، فكل من عرف علته ومكمن عذابه، فقد وضع أول قدم له في طريق العلاج.

***

سبع كذبات. حسين أحمد عبد المنعم

كذبت على زوجتي سبع كذبات منذ بداية الشهر

اعتدت ذلك منذ زواجي.

أفعل هذا كي أتجنب المشاحنات الكلامية اليومية، وجدت في كذبي راحة لي ولزوجتي المسكينة التي تقتنع بكذباتي.

لكن من أسبوع حدث شيء غريب.

ست كذبات من السبع تحققن بالفعل، وأخاف أن تتحقق السابعة.

أنا في ورطة.

هل من مساعدة؟

دعني أحكي لك حكايتي.

أنا يوسف عاصم، تزوجت منذ عام ونصف، أنا وزوجتي قطعنا عهدًا على بعضنا بعض، وهو ألا يكذب أحدنا على الآخر مهما حدث.

وأقسم أنني التزمت بالوعد ما يقارب العام، لكن صدقي في كثير من الأحيان تسبب لي في مشاكل مع زوجتي شديدة الغيرة.

وكالعادة في مثل هذه الأمور يظهر لك الناصح الأمين سابق عصره، الذي يعرف كل شيء، وتراه بلا طلب يقدم لك النصيحة -خدوم بطبعه- ولك الخيار في الأخذ بنصيحته أو تركها.

نصحني أحد زملائي في العمل، بعد أن سمعني أجادل زوجتي على الهاتف قائلًا:

ـ هل أخبرك بالحل.

قلت وكأني لا أعرف ماذا يقصد :

ـ حل ماذا؟

ـ حل سيريحك من الجدال والقيل والقال مع زوجتك (أخرج من جيبه سيجارة وأشعلها ثم أردف بعد أن هززت له رأسي بالموافقة) أخبرها بما تحب أن تسمعه هي وليس ما يحدث فعلًا.

ـ أكذب؟

ـ ليس كذبًا يا صديقي، هذا مجرد علاج للغيرة، جرب وسترى النتائج.

لم ترقني نصيحته في بادئ الأمر، لكن مع الوقت، ومع غيرة زوجتي غير المبررة أصبحت أطبق نصيحته.

تسألني زوجتي مع من تناولت الطعام في العمل فأخبرها بأسماء زملائي

الرجال حتي لو لم يكن هناك رجل واحد، أحيانًا أخبرها أني لم أتناول الطعام في العمل من الأساس، وأضطر لتمثيل دور الجوعان وألتهم الطعام بشراهة لدرجة أتعبت معدتي في كثير من الأحيان.

كانت كذباتي على نحو لايتعدى تغيير حقائق لا تفيد تفاصيلها في شيء سوى الجدال غير المجدي، أو إخفاء وعدم سرد أحداث سردها سيؤدي حتمًا إلى حروب كلامية لا أول ولا أخر لها.

لكن الكذب عادة خبيثة كخلية سرطانية، لا تلبث أن تطور نفسها ككرة الثلج تكبر كلما دحرجتها.

نهاية الشهر الماضي وجدتني لا أكذب على زوجتي فحسب، امتد الأمر إلى أصدقائي، زملائي في العمل، حتى وصل بي الأمر أن أكذب على والدتي وأتحجج بأعذار ليست موجودة.

هنا كان لابد لي من وقفة مع هذا الأمر، وبعد حوار وعتاب داخلي قررت ألا أكذب أبدًا - سوى على زوجتي بالطبع والمقربين منها- وأيضًا قررت أن أكتب كل كذبة أكذبها في مفكرة وأقوم بإخراج صدقة نهاية كل شهر ككفارة لما اقترفته.

كنت أظن أن فكرة دفعي لأموال عن كل كذبة أكذبها ستجعلني أتوقف عن الكذب أو حتى أقلل منه.

لم يمر سوى أسبوع واحد من الشهر وقد كذبت سبع كذبات، ومر الأسبوع الثاني بلا كذبات، ليس لأني توقفت طوعًا، ما حدث جعلني أتوقف وأبحث عن حل لما وقعت فيه.

مر الأسبوع الثاني من الشهر عصيبًا، يحمل من العجب ما لا يتوقعه أحد. حلت بي المشكلات تباعًا، مشكلة تتبعها أخرى.

في اليوم الأول من الأسبوع الثاني انفجر إطار سيارتي على الطريق، ولولا عناية الله لكنت الآن من سكان القبور.

في اليوم الثاني تعطلت شحنة مواد كنت قد اتفقت على استيرادها من الصين، وتسبب ذلك لي في خسارة مالية كبيرة لارتباطي بمواعيد تسلُّم.

في اليوم الثالث انكسر ذراع صديق لي بالعمل، والتزم المنزل واضطرني ذلك لإنجاز أعمال مضاعفة لتعويض غيابه.

في اليوم الرابع تعرضت والدتي لأزمة صحية نجاها الله منها بأعجوبة.

في اليوم الخامس كنت قد سافرت بصحبة زميلي في العمل ـ مكسور الذراع ـ وزوجته التي تعمل معنا أيضًا إلى محافظة ساحلية لإنجاز

وتسلم الشحنة التي تعطل وصولها، وفي طريقنا فقدتُ حافظة نقودي ببطاقة الرقم القومي وكارت البنك الشخصي (الفيزا).

كنت لا أدري لماذ أصر زميلي على القدوم معنا رغم تعبه وقد أخبرته أن كلينا ـ أنا وزوجته ـ نستطيع إتمام كل الأعمال، لكنني فهمت من ردوده أنه يغير على زوجته مني، كما كلمني بنبرة توحي بأنه لا يثق بي.

في نفس اليوم حضر وفد روسي للفندق الذي نقيم فيه للاتفاق على طلبية شغل جديدة، ولا أحتاج لأخبركم أن الوفد لا يخلو من الروسيات الحسناوات.

ولأن زوجة صديقي هي صديقة مقربة لزوجتي، وحتمًا ستخبرها بكل ما يحدث، فكان من الصعب أن أخفي على زوجتي أمر الوفد الروسي.

وزوجتي تغير من زوجة البواب صاحبة الخمسين عامًا، فما بالكم عند سماعها أمر الروسيات؟! من الطبيعي أن تصبح كبركان قاذف لهب.

بالطبع ستتحدثون وتتغامزون وتتهامزون و...و... فيلم خيال علمي يدور في رأس زوجتي فتقذفني بلهيب لسانها.

كان لزامًا عليّ أن أكذب، سأسمعها شيئًا تحب أن تسمعه، قلت بلا سابق تفكير:

ـ لا تخافي، لن أستطيع أن أقترب من إحداهن، كلهن مصابات بأمراضٍ معدية، أنا أخاف أن أصافحهن حتى، أنا الآن أرتدي كمامة خوفًا أن تختلط أنفاسنا.

صمتت زوجتي قليلًا وبنبرة استفهام قالت :

ـ أمراض ؟ أنت تمزح ؟ أية أمراض؟

نبرة صوتها أجبرتني على الضحك، لكنني أخفيت ذلك خشية أن تكتشف كذبي، بنبرة استعجال وكأن القطار سيغادر قلت :

ـ أمراض معدية، إحداهن مصابة بالإيدز، وأخرى مصابة بالزهري وأخرى مصابة بمرض لم يسمه الطب حتى الآن لكنه خطير ومعدٍ، سنتكلم في هذا لاحقًا، سلام.

أغلقت الهاتف وأنا أقهقه بصوتٍ عالٍ وأتخيل زوجتي الآن وهي تفكر فيما أخبرتها به وتكرره مرارًا وكأنها تحدث نفسها.

///

لا أدري ماذا حدث، آخر ما أتذكره في تلك الليلة كان استقبالي للوفد الروسي، تناولنا العشاء معًا أنا وصديقي وزوجته بصحبة الوفد.

هذا فقط ما أتذكره، لا أعرف كيف وصلت إلى غرفتها؟! استيقظت من

نومي لأجدها ممدة بجواري شبه عارية، مذعورًا ألملم ملابسي وألتقط حذائي من الأرض منسحبًا نحو غرفتي.

ـ كيف وصلت إلى هناك؟ هل شاركتهم شرب الكحول؟

لا أستطيع التذكر، دماغي توشك أن تنفجر.

مرت الساعات رتيبة بطيئة ثم جاء الليل، وعدنا إلى القاهرة، كان عقلي يسترجع ما حدث خلال الأسبوع الأول والثاني، الكذبات السبع، والمفكرة.

وصلت إلى المنزل، استقبلتني زوجتي بحفاوة على غير ما كنت أتوقع، كنت أظن أنها ستفتح معي تحقيقًا حول الوفد الروسي، ربما اقتنعت بكذبة الأمراض.

دخلت إلى غرفتي وأمسكت المذكرة، أراجع كذباتي المكتوبة بعد ما حدث.

إن كذباتي تتحقق واحدة تلو الأخرى، بنفس الترتيب المدون بالمذكرة.

لقد كانت أول كذبة لي عندما تأخرت بصحبة زميل لي على المقهي وأدعيت أن إطار السيارة انفجر أثناء عودتي إلى المنزل.

مرة ثانية أخبرتها أن شحنة مواد تعطلت، واضطرتني بعض الإجراءات

للغياب خارج المنزل.

ذراع صديقي انكسر.

والدتي تعرضت لأزمة صحية.

فقدت حافظة نقودي وفيها بطاقة الرقم القومي.

كل هذة كذبات اختلقتها كأعذار لزوجتي وكلها تحققت بالفعل.

ليس هذا فحسب، لقد أخبرتها كذبًا أيضًا أن صديقي يغار عليّ من زوجته، وها قد حدث، أصر على القدوم معنا بذراعه المكسور ونظراته تقول: أنا لا أثق بك.

أكاد أجن، كيف يحدث كل هذا، أهذه لعنة تصيب الكاذبين؟!

المصيبة الكبرى هي كذبتي الأخيرة، لقد أخبرت زوجتي أن الروسيات مريضات، وأنا قد استيقظت في غرفة إحداهن، لا أتذكر إن كان حدث بيننا شيء أم لا، لكن في الغالب قد حدث.

وفي الغالب أيضًا انتقل إليَّ هذا المرض المعدي.

لا أدري، أهو الأيدز أم الزهري أم ذلك المرض الذي لم يسمه الطب حتى الآن؟

كما تخيلت زوجتي بعد أن أغلقت معها الهاتف عندما أخبرتها بهذه

الكذبة، أنا الآن أكرر في نفسي كالمجنون :

ـ إيدز أم زهري أم مرض لم يسمه الطب؟

///

تنتظر النهاية؟

قبل أن أخبرك ما حدث، دعني أطرح عليك سؤالًا؟

ماذا تتوقع نهاية للكاذب؟!

هل سينجو؟

لا أحتاج أن تخبرني بإجابتك، أنا أعرف النهاية جيدًا.

والأهم، كيف تثق بي وقد أخبرتك أنني كاذب؟

هل تصدق الكاذبين؟

ربما انطلت عليك حيلتي عندما أخبرتك أني في ورطة وأحتاج المساعدة.

قرأت كل هذا لتعرف النهاية، وثقت بوعدي أنني سأخبرك.

ما الذي جعلك تصدق أن حكايتي حقيقة؟

أنا كاذب، ألم أخبرك ذلك في مقدمة كلامي؟

هل أنت أغلى عندي من أمي؟

أقرب لي من زوجتي؟

أعز إليَّ من أصدقائي وزملائي؟

ما الذي خيل لك أنك استثناء وأنني لن أكذب عليك؟

لقد وقعت في الفخ.

الآن حان وقت النهاية.

ستقول في نفسك، أنت كاذب، ما الذي يجعلك تصدق هذة المرة؟

صدقني لا يهمني إذا صدقت ما أقول أو كذبت به، لقد حصلت على مرادي.

أنا الآن عائد من رحلتي، أتممت اتفاقي مع الوفد الروسي، قضيت ليلة رائعة أتمنى لو تكررت في القريب العاجل.

نصف حكايتي الأول حقيقي، حدث بالفعل، الكذبات حقيقية.

أما النصف الأخير فهو عارٍ تمامًا من الصحة.

هل أنا ساذج لأكتب ما أكذب فيه من أمور في مفكرة؟

ماذا لو وقعت بيد زوجتي؟

كل ما في الأمر أنني أكره السفر، أمّل من الطريق، كان عليّ أن أبتكر شيئًا يهون من مشقة سفري.

مللت من الطرق العادية التي لم تعد تجدي نفعًا، لذا قمت بتأليف هذة القصة للتو.

وصلت الآن إلى منزلي، اشتقت لزوجتي، عليّ أن أفكر في كذبة جديدة لها.

سأتركك الآن، قبل أن أذهب سأخبرك شيئًا، لا تظن أبدًا أنك استثناء.

***

المقصلة. سامي جويلي

هوت المقصلة، تطايرت الرؤوس، اخفى البعض وجوههم، واستمتع الآخرون بالدماء،

تعالت الأصوات فليمُت الخائنون، وليحيى الوطن.

///

نامين...

بلاد الشمس الخضراء، والأقمار الزيتونية التى لا تغيب، دومًا أحدها أو بعض منها فى سماء الليل مؤنس.

الغابات النضرة، والسهول الواسعة، الأراضي الخصبة، الجبال المليئة بالكنوز. سكان نامين يبدون كزواحف شبيهة بالبشر.

منذ القدم فى الجحور عاش العامة، وفى قصور من ذهب عاش الملوك وحاشيتهم.

تحت الأرض حفرت المدن للشعب، وفى الممرات والمخارج انتشر الجند مكبلين خطوات من يسير، محطمين جماجم من يفكر فى غد مختلف. على السطح وسط المروج يحيا الحكام وصفوة المجتمع فى طرف ونعيم.

أحاطت الأسوار والمتاريس بالقصور، والقلاع، والمنازل الفاخرة، وكل

من يقترب دون إذن مصيره القتل بلا رحمة.

لم تطالب ثورة البلاد بغير الحق فى حياة كريمة، فوق الأرض كما يعيش المترفون، كان حلم البسطاء بسيطًا، وقوة الحاكمين طاغية.

وعندما انطلقت نيران الغضب من الأعماق كالحمم، بعد أن انفجر صمت الصابرين، كان من الحكمة أن يطاع أمر الجموع، وأن تراق بعض الدماء، ليخمد الحريق.

واحتفل القاطنون تحت التراب بضوء الشمس، وتمايل البعض رقصًا مع النسيم، وبين الزروع غرست أشجار الأمل، دون أن يتخيل أحد أن المقابل بتر أيدى الزارعين.

///

وسط الهتافات الثائرة، المحتفلة بالانتصار، تنحى بعض الأشخاص منسلين من وسط الجموع، متسترين بالظلام. وفى مكان خفى جلسوا على مائدة مستديرة، لا يعلم لها بداية من منتهى، يصعب تحديد من يجلس على رأسها، كائنات بملامح أقرب للزواحف تسير على قدمين، اتخذ كل منهم مقعده، وبدأ الاجتماع السرى، لا أحد يعلم ما قيل فيه.

///

العام الخامس من ثورة نامين.

لم يعد أحد يذكر ما حدث يقيناً، بدا الماضي القريب كأنه خيال أو أسطورة اختلفت حولها الأقاويل، تفرق الناميون واختلفوا وتصارعوا وطمست الحقائق وشاعت الأكاذيب.

فى هذا اليوم احتشدت الجموع للاحتفال، وتعالت الهتافات، وتصفيق المؤيدين، فقط المؤيدون تواجدوا، فلم يعد هناك مكان لمن يعارض سوى القبور، أو سجون لا مهرب منها.

ـ التهمة زراعة الورود، تلك المحاصيل الكريهة التى لا تفيد، العقوبة الإعدام.

هكذا قال القاضي وهوت المقصلة. وصاحت الجموع الفرحة وهلل العجائز الذين لم يعتادوا ضوء الشمس، وعادوا إلى المدن القديمة، والسراديب باختيارهم، لاعنين هفوة الجيل الجديد.

ـ التهمة بناء منازل فوق الأرض، مما شوه الجمال العام لنامين، والعقوبة الإعدام.

عادت البلاد كما كانت، بل أكثر ظلمًا وقهرًا، حتى الأنفاق التى رجعوا إليها لم تعد آمنة لأحد، وعندما تجمع البعض ليشعل شرارة ثورة

جديدة، نهض الشعب ضد الثائرين، فكانت النهاية للأحلام كلها.

ـ التهمة غير معلنة حرصًا على مشاعر الشعب العظيم وعقوبتها...

وهوت المقصلة وهوت وهوت وهوت ونهر من دماء يفيض.

***

الروتين اليومي لنزلاء مستشفى الأمراض النفسية والعصبية، تم، وكما جرت العادة منذ زمن طويل؛ فبعد وجبة فطور متواضعة، تتناسب وميزانية شحيحة لمستشفى حكومي قديم، جرى إخراج كل النزلاء الهادئين المسالمين والمطيعين إلى حديقة المستشفى للمشي والتريض، والاسترخاء على الأرائك الخشبية المتناثرة أسفل أشجار الكافور العجوز، تلمسًا لدفء شمس يوم شتوي بارد. كان ذلك، ووفقًا لما رواه محرر جريدة يومية عريقة، في واحدة من سني ستينيات القرن الفائت، وعبر سرد شيق لوقائع تمت بالمستشفى خلال ذاك اليوم البعيد، باعتبار ما حدث وقتها طرفة غرائبية لطيفة مستحقة للتذكير بها في العام الأول من العقد الثالث للقرن الحادي والعشرين، بينما يصول ويجول فيروس كورونا الشرير، ويجيب عاليها واطيها في العالم كله.

وعلى ما يبدو، فإن المساحة المخصصة لقصة المستشفى هذه لم تكن كافية لسرد ما جرى على وجه التحديد، إذ إن كاتب الموضوع اكتفى بذكر أن من كانوا بالحديقة يومها خرجوا من بوابتها الحديدية خلسة واختفوا، وكمنت طرافة الحادثة ليس في رجوعهم سالمين فحسب، وإنما في

عددهم الذي زاد زيادة غير مفهومة عند عودتهم داخل أسوار المستشفى مرة أخرى.

طويتُ الجريدة، منتهية من قراءة الحكاية، مستمتعة بلذتها الممتزجة بلذة نكهة البن الغامق المحوج لزوم الجلوس الصباحي بشرفة بيتي متأملة شجرة كافور وحيدة، نجت من مذبحة أشجار تمت منذ شهور على الرصيف المواجه لعمارتنا، وقد تخالطت صورة هذي الشجرة مع صور تشكلت بمخيلتي وأنا جالسة في مكاني، عن احتمالات حدوث وقائع ربما جرت بالفعل في المستشفى في ذلك الصباح، ولم تُسرد تفاصيلها بالحكاية المنشورة على صفحات الجريدة. خمنت: ربما نسوا إغلاق البوابة جيدًا، أو لعل واحدًا من حراسها قد تغيب عن الحضور يومها، وفاجأت زميله آلام وتقلصات معوية حادة، جعلته يسارع بترك البوابة، ويندفع بسرعة قوس قزح إلى بيت الراحة. بقيت جائلة بخيالي باحثة عما يكون قد حدث بالفعل يومها بالحديقة إياها في يوم من أيام ستينيات القرن الماضي. فهاهوالمريض الجالس على أقرب أريكة للبوابة، يهز رأسه هزًّا متواليًا بحركات عصبية مثلما يفعل دائمًا لأنه يعاني من تخيلات وهلاوس تداهمه على هيئة ديك بلدي أحمر ضخم دائم الصياح عند

أذنيه بكوكو، كوكو، كوكو، وعندما يلاحظ ذلك الرجل المفزوع دومًا غياب الحراس عن البوابة المنفرجة قليلًا، يجري تجاهها بسرعة ليخرج منها إلى الشارع المفتوحة عليه، وللعلم فهذا النزيل تحديدًا طالما كان نزيلًا مزمنًا بالسجون، منذ زمن الهتاف الشهير "الاستقلال التام أو الموت الزؤام"، وقد تعرض للبهدلة والتعذيب منذ ذاك الزمان وما تلاه من أزمنة، بسبب انتمائه لواحد من التنظيمات الشيوعية السرية المنتشرة آنذاك، والتي طالما طالبت بخروج البلد من مأزق الفقر والتخلف والتبعية للاستعمار.

ولما كان جُل المرضى معتادين، أثناء تنزههم الصباحي الحدائقي، على مراقبة بعضهم البعض من طرف خفي، فقد لاحظ اثنان منهما اجتياز النحيل المبتلى بالديك الصيّاح للبوابة وخروجه إلى الطريق، فانطلقا خلفه، ليتبعهما آخرون، بعد أن رفرفت روح القطيع بحلاوتها على الجميع، وإلا ما الذي يفسر كل هذا العدد الكبير، والذي ذكره محرر الجديدة الغراء- كما تُلقب دائمًا- وكل أولئك الذين انطلقوا خلف نزيل السجون والمعتقلات الخبير، لتمتلئ بهم المساحة الممتدة من الطريق أمام المستشفى، وهوالطريق المنشأ بعد عام ١٩٥٢ ليقطع القرافة الكبرى

أسفل جبل المقطم، ويمتد حتى منطقة المعادي بالجنوب، ليصلها بمطار المدينة في الشمال، وليسمى باسم واحد من الذين قاموا بحركة الجيش المباركة، وهو صلاح سالم.

رغم أن المستشفى لم يكن يبعد عن حي العباسية العريق، إلا أنه كان محاطًا بمناطق شبه خاوية من الناس وغير معمورة، اللهم إلا من بعض الثكنات العسكرية المنشأة منذ زمن المملكة المصرية الأخيرة، والتي لم تصمد بسبب خيبة حكامها في وجه الزمان إلا بحوالي مائة وخمسين سنة لا غير، لذلك ما إن وجد النزلاء أنفسهم خارج الأسوار في الخلاء الفسيح الممتد، حتى بدأوا في الانطلاق على هواهم، والتصرف بما يتناسب ونزلاء مستشفى أمراض نفسية وعصبية، تحت شمس شتوية تلاعبها الغيوم. البعض رفع عقيرته بغناء وصياح وصفير، البعض الآخر بدأ يضحك ويكركر ويرقص ويتشقلب على الأرض، قلائل رغم برودة الطقس فضلوا خلع ملابسهم ليبقوا كحي بن يقظان وهو في الغابة مع أمه الغزالة، وذلك بعد أن تفتحت قريحة المبتلى بالديك وتنبأ بسقوط المطر وهو ينشد مبتهجًا:

جاءك الغيث إذا الغيث همي   يا زمان الوصل بالأندلس

هاجوا وماجوا بسعادة من عبر بوابات الجحيم إلى حيث فراديس النعيم، وقد ملكوا طريق صلاح سالم بطوله وعرضه أمام المستشفى القاهري الشهير. سعادتهم في حقيقة الأمر لم تدم طويلًا، فمدير المستشفى واجه المسألة بهدوء وثبات ورباطة جأش تليق بخبير مفرقعات وألغام مخضرم، بعد أن وجد نفسه إزاء مصيبة أشد من مصيبة لغم على وشك الانفجار. كان المدير – لحسن الحظ- وقت سريان السعادة والسرور بين الصاخبين المهللين في صلاح سالم، واقفًا بنافذة مكتبه بالمبنى الإداري القديم، يدخن ويسحب بالتذاذ نفسًا من سيجارته الكوتاريللي المفضلة لديه. وبينما كان يفكر في إيجاد حل لمشكلة ذلك النزيل الجديد، المُصرِّ على أنه قنفذ ولا يتوقف عن البحث عن ثعابين بالحديقة لاصطيادها، لاحظ ذلك المدير السمين قليلًا وصاحب الوجه الطفولي أن الأرائك الخشبية خالية تمامًا من جلاسها التقليديين، ولا صوت يأتيه غير حفيف أوراق الكافور الخشنة عندما تداعبها الرياح.

أطفأ سيجارته بسرعة، ونادى نائبه والممرضين، بينما يمد يده لدرج مكتبه، ليُخرج منه صفارته النيكل المطوسة القديمة، ثم ينطلق على رأس

جيشه الصغير بأسرع ما يستطيع إلى ما وراء البوابة المفتوحة على شارع صلاح سالم.

المدير هذا، مدمن عمل، تظن زوجته أنه بحاجة إلى علاج لأنه يقضي جُل وقته بالمستشفى منذ تعيينه بها قبل عدة سنوات، وفي رأيها أنه مصاب بجنون خفيف، ليس لهذا السبب فقط، ولكن –وكما تحاول إقناع نفسهاـ لأنه يصر على ارتداء قمصان بألوان قوس قزح الزاهية رغم تجاوزه الخمسين، كما أنه يحرص على متابعة برنامج الأطفال بابا شاروصباح الجمعة من كل أسبوع، والاستمتاع به كأي عيّل صغير.

هذا الجنون الخفيف اللطيف كما تقول، كثيرًا ما كان يحيرها، بل ويغيظها أحيانًا، مثلما حدث ذات مرة وهوخارج يغني مع مطرب بابا شاروالألثغ:

يا عسكيي (يا عسكري) يا ابوبندقية

يا زينة الأمة المصيية (المصرية)

انت قوي جباي (جبار)

ولا تخاف الناي (النار)

فزعقت عليه من المطبخ:

ـ عاوز بيض مقلي بالزبدة ولا زيت زيتون.

"ثم إنه هادئ، هادئ، هدوء قطة شيرازي قطعت الخلفة، وأعصابه في ثلاجة". هكذا كانت تقول عنه لأختها بينما تشكو منه.

ولعل هذا الجنون الخفيف اللطيف، والذي تظنه الزوجة بزوجها، كان هوالدافع لدى المدير صاحب الرأس الضخمة نسبيًا قياسًا إلى جسده، لابتداع طرائق عملية فعالة للسيطرة على نزلاء المستشفى واحتوائهم، خصوصًا أولئك الرافضين لتلقي العلاج، أوالمصابين بنوبات هياج مفاجئة؛ ولم يك الرجل يلجأ إلى العنف والقسوة في التعامل مع مرضاه، ولطالما لجأ إلى صفارته النيكل لحل أعوص المشكلات التي تواجهه، فيجمع بها النافرين والمارقين عن النظام، ليدخلوا حظيرة الانضباط مرة أخرى، ويعودوا إلى عنابرهم وأسرّتهم بلا قيد أو شرط.

رافعوشعار "حرية بلا ضفاف"، المنتشرون خارج البوابة الحديد بفضاء طريق الحركة المباركة، والذين ضحكوا ورقصوا وغنوا وهاصوا وزاطوا، وتعروا، وتنططوا، وتشقلبوا كيفما شاءوا، ما إن رأوا رأس مديرهم الضخم يبرز من البوابة، وفي أعقابه طابور الأطباء والممرضين،

وقد أمسكوا بأطراف معاطف بعضهم البعض البيضاء، مشكلين طابورًا ممتدًا لقطار السكة الحديد، بينما الهاديء بارد الأعصاب ينفخ بصفارته كقاطرة، ثم يحاكي صوت القطار: توت، تش، توت، تش؛ ما إن رأوا وسمعوا ذلك حتى تجمعوا سريعًا لينضموا إلى القطار الأبيض، ليمتد ويطول، ثم ليدلف الجميع داخلين من البوابة مرة أخرى.

الطريف في الحكاية، ولعله الدافع وراء نشرها بالجريدة، هوأن عدد الذين خرجوا من البوابة لم يكن مطابقًا للذين دخلوا مرة أخرى مع القطار الأبيض الممتد خلف قاطرته ذات الرأس الضخم الكبير، فالذين خرجوا كانوا ثلاثمائة وخمسة أشخاص، بينما زاد عليهم الداخلون من البوابة بخمسة وتسعين نفرًا بالتمام والكمال، فمن أين أتت هذه الزيادة؟

هذا ما قاله مدير المستشفى لنائبه، قارنًا حاجبيه الرفيعين أكثر مما هما مقرونان أصلًا، بينما يمط رقبته القصيرة بحركة انفعالية نادرة الحدوث له. بلّم المساعد، والذي لم يكن بحاجة إلى المزيد من الأسئلة المدهشة لأنه كان مندهشًا بالفعل. هز كتفيه دون أن يرد، إذ كان يحاول وهوواقف أمام رئيسه أن يجد إجابة لذلك اللغز، وفكر في عدة احتمالات:

ـ ربما مجموعة أو عصابة لصوص أرادوا الاختباء والتخفي بين المرضى.
ـ أو مجانين جدد طالما رغبوا في اللجوء إلى المستشفى هربًا من العالم الذي يعيشون فيه.

ولما كان المساعد من الجيل الصاعد الحالم، والمتأثر بأفكار العهد الجديد، فقد راوده الشك في أن الموضوع كله، ربما كان مؤامرة خارجية مدبرة ضد المستشفى. عمومًا لم يتمادى الشاب بعيدًا في هذا الاتجاه، فلم يتهم الاستعمار وقوى الرجعية بذلك، مثلما لم تصل الجريدة بقصتها المنشورة حتى النهاية، فتكشف مصير هؤلاء الداخلين بمحض إرادتهم إلى المستشفى ضمن صفوف الذين كانوا قد خرجوا منه.

تساءلت بيني وبين نفسي عن المنجذبين بمغناطيس الدخول، من أين جاءوا ولماذا، بينما أستعيد بذاكرتي شارع صلاح سالم في بداية ستينيات القرن الماضي. لقد كان طريقًا واسعًا ممتدًا، شبه فارغ، بلا صخب أناس أو سيارات مسرعة، خصوصًا في محيط مستشفى الأمراض النفسية والعصبية.

فجأة قفز إلى رأسي سؤال جعلني أبلم مثل مساعد المدير. ترى كم سيكون عدد الداخلين من البوابة في زماننا هذا، ضمن أولئك الذين

خرجوا منها، لوتكررت هذه الواقعة مرة أخرى؟

ألف، ألفان، آلاف مؤلفة؟ ربما ملايين؟

قلت لنفسي: أجل ملايين من الناس، ملايين باتوا لا يستطيعون الصمود أمام كل ما يعيشونه في عالمنا الآن من صراعات وحروب واستبداد، وعنف وفقر، وكذب ونفاق، وزيف إعلامي، ثم هناك مشاكل البيئة والعبث بالطبيعة، والأمراض الغريبة والمستجدة وكوفيد،، و،.

تخيلت كم مستشفى للأمراض العقلية يحتاجها العالم الآن ليهرب إليها البشر بعيدًا عن كل ذلك البلاء الذي يحل بهم ويتزايد يومًا بعد يوم. وشعرت بابتسامتي تتلاشى، ومرارة تتجمع في حلقي.

***

براءة هرقل . سهر لقماري

المغرب

أخذ الجميع حصته من العناية، الاستحمام بالماء البارد يجعل الأجساد أقوى، والعقول مطلقة الانفتاح، أي تجعل من الأجساد هراقل أسطورية تزيد توسع الهوة بين العادي واللامعقول.

وبعد أكلة حديدية من العدس وحليب مزود بالحديد وخبز مدعم بالحديد وبعض صدأ الحديد بأكواب ذاتِ عصر، اصطفت طوابير المجندين الصغار، يتلمس كل واحد منهم آخر عهد له بخصلات شعر بشرية، البنات جد محظوظات، يترك لهن الاختيار بين التقريع القمري والتقصير الشمسي، بينما الرجال الصغار بلا اختيار، لا يجب عليهم تعود صفات المفتونين، صفات الزاهدين تليق بهم أكثر، فهي الأقرب للحكماء.

يضم يديه خلف ظهره مزهوا بنظام جيش يتنبأ له بمستقبل لا شيء مميز، يبتسم مفتخرًا بإنجازه. كلما انتهى أحدهم من الحلق يمر بالأب الروحي، رأس مُطأطأ ولثم موَقر لراحة يد الأولياء.

يتصفح كل يوم دفتر أحدهم غير مدرك أنه نفس الدفتر، لكنه لا ينتبه أو

لايريد، طالما لن يرى أحد قبله ولا بعده دفترًا بهذا الجمال ترتيبًا وخطًا ومحتوى، وكأن بداخله ما كان ليرضى بغيره مظهرًا خارجيًا يليق بمستوى التربية التي يقدمها لهؤلاء الأطفال.

قامت جمعية حقوقية ذات يوم بزيارة للملجأ، واقترحت فرصة عيش يوم في وسط أسري يتلقى فيه كل طفل رعاية من أسرة تحتضنه برغبة ويعيش بين بشر من بني جلدته حياة المجتمع وظروفها، ولربما حظي أكثر بفرصة الكفالة. سيكون ذلك بمثابة تدريب لأطفال الملجأ ليستوعبوا مفهوم الأسرة الذي افتقدوه في حياتهم، وينعموا بلحظات دافئة ولوكانت قصيرة.

استشاط غضبا ونفض معطفه وقام بطردهم من مكتبه:

ـ هل جننتم؟ تريدون إنزال ملائكة منزلة البشر الخطائين؟ تريدون إدخال حملان عرين ذئاب ووحوش؟ تريدون حرق أوراق دفتر كثيرا ما ارتقى لمنزلة التقديس؟ هل ستتحملون رؤية دموع الصدمة؟ هل تشتهون أطباق ألسنتهم المقطعة وشواء مقلهم المصدومة؟ لن يكون لكم ذلك. ولا لهم عقاب ذلك.

خرج مبعوثوا الجمعية تتهاوى من عيونهم الدهشة من ردة فعل الرجل،

صحيح أن سمعة الملجأ تسبقه، لكن أطفاله لا يغادرونه إلا لغابة في الربيع وجبل في الشتاء وبحيرة محمية في الصيف، لا يلتقون بشرًا ولا يتعاملون مع كبار غيره، حتى الحلاق الأبكم الطيب يراقبه طوال الوقت لئلا يخوض معهم في حديث ولو بالحركات!

مر الطابور المنظم حيث الكبير قدوة الأصغر، راقبوه بإعجاب إلى أن رمى آخر من في الطابور نظرة مخيفة جمدت ابتساماتهم في شفاههم، وطرحت في ريب سؤالًا ما كان ليتجرأ أحدهم على طرحه على رجل من أغنى أغنياء البلد، صرف نصف ثرواته على إنماء ملجأ رعاه ورعى قاطنيه من اليتامى والمتخلى عنهم منذ ما يناهز العشرين سنة، حتى أنه يوفر لهم ما لن يجدوه في مدارس المجتمع. لا يتباهون بلباس لأنهم جميعا يلبسون نفس الهندام، ومريح لدرجة لا يحسون برغبة في غيره، بطونهم مليئة وعقولهم كذلك. ولكن تلك النظرة المريبة، ما سرها؟ ربما لأنهم غرباء، ربما لأنها فضولية، ربما هي إشارة بضرورة الرحيل، أو بضرورة البقاء.

اختارت إحدى الشابات من مبعوثي الجمعية فجأة تطبيق عرض مسرحي أمام أنظار الأطفال، فتظاهرت بالحمق وبدأت ترقص وتقفز

وتغني وتحدث جلبة أثارت انتباه الأطفال بذلك، فنالت جزءا من مرادها؛ انتبه رفقاؤها لمعنى المحاولة وصاروا يحثون الأطفال للانضمام إليهم ليستمتعوا، أما الشابة فركعت على ركبتيها تستجدي الصغيرة صاحبة النظرات عساها تحظى بضمة أو قبلة دافئة قبل الرحيل. تبسم الولي الوالي وهويراقب من نافذة مكتبه، تخطى ظل الشابة وانطلق نحو الصغيرة ممسكًا بيدها يحثها على السير معه، قربها إليها فاشتمت منها رائحة التعرق وكثيرا من الدخان، فضمت يده وحولت وجهها للسماء تبحث عن نقاء. أمسك بيده الأخرى يد الشابة وحثها على النهوض قائلا:

ـ هي صماء بكماء، وأكثر من في الطابور براءة وفطرة.

لوهلة ظنوه غسل أدمغتهم الصغيرة، أو ربما منعها من الاتساخ، أو بالأحرى فاقم الوضع بجعلهم نماذج هرقلية مصيرها الفناء أمام أول ضمة قد يتلقونها من بشر حقيقي. قد يخشى عليهم التبخر من وطأة حر الواقع الخارجي، أو قد يخشى على شريعته من الاحتراق.

انتهت الزيارة، واصل الطابور سيره، وواصل أهل الجمعية انصراف الأمل، رمت الشابة آخر نظرة قبل إغلاق الباب فرأت الطفلة الصغيرة تلوّح مبتسمة.

***

قُبلة على جبين الموت. عبد الرحمن محمد

صدره ينتفخ، يحمرُّ وجههُ العبوس كالبيد من التفَّاح.

تتخبّط ركبتاه، يقضم أظافره، يضحك، ينحب، يقضم أظافره، يدمي أصابعه.

هل ماتت أمه!

لا، هي بألف صحة وسلامة.

صفعته صديقته حين أخبرها أنه أبله كبقية من يحبون، ويحبها.

لا، يكره النساء، ويكره أمّهُ؛ فهيراقصة، عارية، شمطاء، كما يسمونها أصحابه.

هووحيد، موسومٌ بالعار، بائس، معقَّد، وكل ما مضى لا يسبب لهُ أي ضرر، أو لم يعد يسبب له أي أذى.

ما يضنيه ألمًا هوالتوجس، عدم ثقته بنفسه وبكل من حوله، لا يعرف طريقًا لاتخاذ أي قرارات حاسمة، متردد، يقدِّم خطوة، يعود مئة، ومن ثم يتكئ على مرآة الحمام، ويبصق، فيخال له أن هناك جنية عاشقة ستخرج من تلك القطعة التي تعكس وجهًا بشعًا، وتأخذه معها إلى حيث العوالم الخارقة، والحياة الكريمة.

فيتذكر أنه لا يؤمن بالجن.

يحمل خيبته على كتفه ويهبط بها على سريره، يمدد قدميه الطويلتين العفنتين. يرمق الشرفة بمقلتين حمراوتين، فيقع نظره على مئذنة لجامعٍ كبير يخرج منها صوتٌ عذب يهلل بـ "حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح".

هل يصلي؟!

لا، تذكَّر الآن أنه مُلحد، لا يعرف شيئًا عمن يصلون، ولا يعترف بالعبادة.

حين سئل في مساءٍ شتويٍ عن كيفيه خلقه، أومن أين جاء. أجاب: «أنا، أنا من أتيت بي، خلقتني من الزحَّام، من الشوك، وزرعت نفسي في رحم شجرة فاسدة».

مشى، طاويًا عقله تحت إبطه، هبط السُلم الخشبي، أشعل لفافة لا يعلم بالضبط ماتحمله بين طيَّاتها، ولكنها تضبط الدماغ، ونسى، نسى أن عقله يكمن في دماغه الذي يطويه تحت إبطه العفن.

أكمل السير، مطاردًا نظرات البشر الثاقبة لقلبه، قائلة: «ملحدٌ وابن راقصة! ها ها ها، ينقصك أن تكون شاذًا يتضاجع معك إبليس ذاته».

يكمل، يبكى، ويبتسم، يمثل الثقة، يدَّعي أنه الإله، أنه المختلف، وأنه العظيم.

يحتكّ به أحدهم بغتة، والآخر بقوّة، إنَّها جِنازة، فتساءل عن صاحبها، ولم يجبه أحد، لا يستطيع الرؤية جيدًا، الغبار كثيف من أثر هرولة الناس:

«ماذا يجري! »

فيجيب مجهول على مجهول:

«إنه النَّعش، ثقله بثقل الفيل، لا نستطيع حمله».

فيرد مجهولٌ آخر:

«أليس ذلك نعش الراقصة، لعنة الله عليها».

«نعم، نعم، إنه يشتعل، فليغيثنا أحد».

هاتوا الرمال..

هاتوا الماء..

ابتسم صاحبنا، وهمس في أذن الهواء:

«الشجرة الفاسدة، مصيرها الحطب، هي وأغصانها".

ومن ثم ألقى بنفسه، وعانق النَّعش، وقبَّل الموت على جبينه.

أثبِت. عبير عبدالله

وجدته في قفاي دون أن أشعر بمجيئه وأنا أغسل المواعين في المطبخ.

ـ كبرتِ واتدورتِ، وبقى عليكِ لفة جسم أحلى من أمك، كفاية دوران أردافك، وصدرك اللي ماشية تقولي بيه أنا هو.

التفت إليه مخضوضة:

ـ كيف دخلت هنا من غير إحم ولا دستور، وإيه الكلام ده؟

ـ ههههه بذمتك معجبكيش؟ ولا زي أمك تاكلي وتنكري؟!

ـ لو سمحت اخرج برة.

ـ دي ماكانتش كوباية شاي دي اللي جاي اعملها بنفسي علشان ماتعبكيش، ده جزاتي؟

خبطني على ظهري وظل يضحك، تركني وانا أرتعش وأكتم أنفاسي من شدة القرف، لا أطيق نفسي ولا ما لمسه من ملابسي، انتظرت حتى يخرج من البيت كله؛ فأنا لا أجرؤ على أخذ حمامي أثناء وجوده، و نقعتها بكل المنظفات المتاحة وظللت في الحمام ادعك موضع لمسه وانفاسه حتى كدت أجرح نفسي.

خائفة دائمًا من ماما، لا أعرف لماذا، كما يخافها كل من حولها حتى هذا الرجل الذي تطلق عليه زوجها، وأمها وأخوالي وخالاتي، حتى جدي رحمه الله كان يعمل لها ألف حساب. المال أهم شيء لديهم، كذلك مصالحهم التي تعرف كيف تقضيها جيدًا، تدبس من لا يرضيها في قضية، أو حتى تدفّعه غرامة، أو تجعله يلف حول نفسه وتوقف له مصالحه بطريقتها الخاصة.

أطيعها علها ترضى وهي لا يرضيها شيء، ولا مفر من تنفيذ كل ما تطلبه مهما كانت صعوبته أو ضد مصلحتي، لا تكتفي بأن يكون شغل البيت كله على رأسي من تنظيف وغسيل وشراء الطلبات، حتى اللقمة لا تكلف نفسها بالوقوف في المطبخ كي تطبخ لنا مثل أي أم عادية مهما كانت مفترية على بنتها ؛ فالأمهات هن من يطبخن دائمًا كما أسمع من زميلاتي بالمدرسة، أتحمل كل أنواع الضرب والعقاب وأقوم بهذا كله منذ كنت في العاشرة من عمري لما طلقت نفسها من أبي لأنه خانها كما تقول، أخذ منها ما طاله منها، ورماني أنا وإخوتي لها لا نعرف عنه شيئًا، عرفت مؤخرًا أنه متزوج من سيدة طيبة تصلي وتعرف ربنا، ومن سيتحمله ببخله وعصبيته وعدم تحمله لأي مسؤولية؟!.

بدأت أمي في معرفة رجال كي تتزوج، هذا عمو أحمد صاحب السوبر ماركت الذي لا يحلو له السهر بغير الشيشة داخل البيت وعليّ أن أساعدها في إعدادها كي اعتاد على هذا، وليتأكد أنني شاطرة وهادئة ولن يزعجه وجودي ، وهذا عمو عفيفي ريفي وسيم أخفتني عنه ، لأن أهله لن يوافقوا أن تكون زوجة ابنهم بعيال رغم أنها ستكون الزوجة الثانية، ثم عرفته بي على أنني أختها الصغيرة ،، ولما زاغت عينه عليّ، لم تمانع من تزويجي له بحجة أنه عريس لقطة لا يصح أن نطيره من ايدينا ، نأخذ منه ضمانات كافية لتأمين مستقبلي ، ولو لم يعجبني الحال تُطلقني منه. كرهت حياتي وفكرت أن أذهب لأعيش عند أبي، عماتي وعمي دوخوني إلى أن قبلوا أن يعرضوا عليه طلبي، كلمني مكالمة تليفون سخر مني فيها، فأنا التي اخترت أن أعيش معها وعليّ أن أتحمل نتيجة اختياري،وأغلق هاتفه، ولم أعرف له طريقًا بعدها.

اضطررت أن أرسب عامين رغم أنني "شاطرة"، وإن اعترضتُ على أي شيء تمنع عني أي مصروف وتأمرني بعدم النزول من البيت وعدم الذهاب إلى أي دروس خصوصية، رغم أنها جميلة وصحتها جيدة و لا تنزل الشغل كل يوم، تذهب إلى أمها أو صاحباتها أو أي مكان وتتابعني

بالفيديو أثناء إعدادي الطعام وقيامي بشغل البيت حتى ترجع لتجد كل شيء جاهزًا، خاصة في الأيام التي يأتي فيها إلينا هذا الرجل الذي تزوجته عرفيًّا بورقة، لا يعلم عنها أحد شيئًا إلا أمها وإخوتها وقتما يحب ويوافق مزاجها؛فهو لا يعيش معنا لأن له زوجة أخرى وبيت وأبناء.

يلف في الشقة بالشورت القصير والفانلة أم حمالات أو بدونها بلا أدنى حياء، يغمز لها بعينيه أنها تأخرت فتطلب مني أن أترك البيت وترسلني في مشاوير بعيدة أو تقول لي انزلي الشارع وتصرفي كما يحلو لك، حتى لو كنت متعبة من الوقفة طول اليوم في المطبخ، أو لدي مذاكرة يجب الانتهاء منها، ليس لديّ رفاهية الرفض أو الاعتراض وإلا ظلت تشتمني وتمد يدها عليّ أمامه إلى جانب الحرمان من المصروف الضروري جدًا مهما حاولت مصالحتها وعمل كل ما تريد إلى أن توافق هي بمزاجها وتصفح عني.

صارت الآن تتركني في البيت حين يحضر هو ببجاحته وعدم احترامهما لي إطلاقًا، وكأنهما عروسان في شهر العسل رغم أنني أتضرر جدًا من هذا، خاصة حين يغني بصوته القبيح مع أغاني المهرجانات التي ترقص هي عليها.

يستنزفاني في إعداد كل شيء لهما وكذلك لإخوتي الصغار الذين يقضون يومهم خارج البيت؛ ثلاثة صبيان: أحمد يسوق ميكروباص وسامح يسوق توكتوك تمتلكهما، تماماً كورشة الكاوتش وإصلاح السيارات التي يديرها أحد أخوتها ومعه كريم أخي الثالث كي يكون عينًا لها.

تجري الفلوس في أيدي إخوتي، يهملون مدارسهم ومذاكرتهم كما أهملت هي تربيتهم، لكنها ماهرة جًدا في تطويعهم لخدمتها كعادتها مع الجميع.

تدعي أمام الجيران الذين تحرص على عدم مخالطتهم لنا عندما يرونه داخل عندنا أنه أبي، وجميع العائلة ـ ما عدا أمها وإخوتهاـ وزملاء العمل يعلمون جيدًا أنها مطلقة؟!.

منذ حوالي سنة علا صوت شجارهما، ظلت تسبه وتهينه، بخيل لا ينفق عليها إلا ملاليم وهي التي تنفق على البيت وعليه وعلى مزاجه، طلبت منه أن يطلقها، نظر لها من أعلى إلى أسفل، أسرع إلى الدولاب أخرج الورقة العرفية، خطفتها وجرت منه، لوى ذراعها وأخذ الورقتين ومزقهما وهو يضحك.

تصالحا وعاد إلينا أشد بجاحةً، آكل نائم شارب كزوجين دون حتى

الورقة العرفية التي لا أرى لها أية قيمة، ولما طلبت منه أن يتزوجها سخر منها.

ـ ألسنا زوجين يا حبيبتي؟! ما حاجتنا لورقة يمكن تمزيقها في أي وقت، والحمد لله أنك قد تخلصت من الحمل بسهولة؟!

لم تفلح معها محاولاتي إقناعها بأن هذا ليس زواجًا وأنه حرام، أخشى لو أثقلت عليها أن تعود لحرماني من أي مصروف مهما كان، وتحبسني في البيت الذي لا أطيق وجوده فيه، وليس لي مأوى سواه، وقد صارت عيناه كسهام يرشقني بها في أي وقت ويتطاول علي بلسانه عن خراط البنات الذي لم يترك قطعة في جسمي إلا واشتغل عليها، عن ميوعتي وتدللي أمامه كذبًا، ويصفني دائمًا أنني....مثل أمي، بل صار يجهر بذلك ويذلني أمام زملائهما في العمل حين أمر عليها لأخذ منها ما أشتري به طلبات البيت التي تحاسبني عليها حساب الملكين بأن سيرتي غير محترمة وأنني..، تكتفي هي بإعطائي ما أحتاجه من نقود وتصرفني بسرعة.

تمشي الآن في مشروع خطوبة وزواج من شخص محترم تقدم لها، ولما اعترض وثار كيف تقبل ذلك وهو زوج لها، نظرت في عينيه.

ـ أثبِت أنني زوجتك.

دفعت السيدة طفلها بقوةٍ إلى داخل السيارة وسط ضجيج الركاب، تحركت إلى الكرسي الأخير تتهادى كالمحمّل، تمرر ابنها أمامها حتى استقر الاثنان على جانب الشباك، قفز السائق على كرسيه، أغلق باب سيارته قبل أن يُطلق عبارته المعتادة طالبًا الأجرة.

كان يجلسُ بجانبها شخصان مهنّدمان، نظر إليها أحدهما بنفورٍ شديدٍ عندما مرّت أمامه، احتكّت ملابسها الرثّة بما يرتديه، فقطّب جبينه، رمقها بازدراءٍ شديدٍ للمرة الثانية، نطق بكلماتٍ غير مفهومةٍ، كاد ينفجرُ عندما تسللت إلى أنفه رائحةٌ مقززةٌ من تحت إبطيّ السيدة، سوّى ملابسه بقرفٍ.

لم تُجلّس السيدة ابنها على فخذيها؛ أفسحت له مكانًا بجانبها حتى أصبح الكرسي الأخير محملًا بأربعة ركابٍ بدلًا عن ثلاثةٍ، طوال الطريق كان «الأفندي» غاضبًا من تلك السيدة، حجمها كبيرٌ لدرجة أنّ الكرسي الأخير اهتزّ عندما ألقت بنفسها عليه، التصق «الأفندي» والشخص الجالس بجانبه والسيدة حتى ظهروا وكأنهم كتلةٌ واحدةٌ لا تميزها سوى ألوان الملابس المختلفة، وهذا الطفل يتحرك مثل «الملسوع».

مدّت السيدة يدها بالأجرة إلى الشخص الجالس بجانبها، تناولها متأففًا أيضًا، كانت تلك الورقة المالية «مبللةً» من حبات العرق التي غطت أماكن مختلفة في يدها ووجها، كانت تشعر بالخجل من هذا الشخص، تعلم أنّه غير متقبل لها وطفلها.

طوال الطريق كان الطفلُ لا يكف عن الصراخ، أثناء وقوفه وجلوسه بسرعةٍ يتطايرُ الرذاذ من فمه مستقرًا على قفا الشخص الجالس في الكرسي قبل الأخير، تصفعه أمه، يُحاول اتقاء ضرباتها، تبتلع صرخاتُه أصوات أغاني المهرجانات «الزاعقة» التي يتراقص عليها السائق طوال الطريق.

«الأفندي» المتكوِّم بجانب السيدة بدا وكأنه على «قدرٍ يغلى»، أو شيء بذلك أشبه، يُريد أن يطلب منها ابتلاع صرخات ابنها حتى نهاية المشوار، لكنه مترددٌ؛ لا يُريد الدخول في اشتباكٍ معها، ربما كانت مثل النسوة اللاتي يشاهدهنّ على أطراف الحارات الشعبية أثناء المناوشات مع الجيران، يُغرقن الأخريات في الألفاظ القبيحة والشتائم بالأب والأم، تيبّست رقبته من قلة التململ، فحركها يمينًا وشمالًا محاولًا أن يستنفد الوقت حتى لا ينشغل بهذه السيدة وطفلها.

أصابه التوترُ أكثر عندما زرع الطفل الصغير إصبعه في عين أمه، صرخت السيدة بقوةٍ، تقوّس الطفل بجسده متفاديًا لكماتِها المتسارعة، تزامن ذلك مع مطبٍ صناعي رفع السيارة لأعلى حتى أوشكت على الانقلاب.

يعضُ «الأفندي» على شفتيه في غضبٍ وهو يردد بصوتٍ غير مسموع: أما لهذا الطريق الطويل أن ينتهي؟ متى يخمد بركان هذا الطفل المزعج؟

وصل الأفندي إلى قمة الغضب، يُريد أن ينفث تلك الشحنة الضاغطة على صدره، قبل أن يصرخ موبخًا السيدة، رنّ هاتفها، مدّت يدها في صدرها، «نبشت» فيه بسرعةٍ حتى أخرجته.

كانت تتحدثُ بصوتٍ منكسرٍ، تقول:

ـ السِت صاحبة البيت إدتني ٢٠٠ جنيه بعد عذاب يوم بطوله في تنظيف شقة مردومة تراب، غير جوزها اللي تندب في عينه رصاصة، دلوقتي رايحة لراجل كبير ومراته، هنضف لهم شقتهم.

بدأ «الأفندي» يهدأ قليلًا؛ بل انطفأت نظراته للسيدة، غاص في كرسيه، انكسرت روحه، تكفّل ما فهمه من حديث السيدة في إخماد ثورته، تذكر تلك اللحظات التي كانت تصحبه فيها والدته إلى بيوت الآخرين، لا

ينسى جلوسه بعيدًا وهويشاهد والدته «تمسح وتكنس»، وفي المرات التي كان يرفض الذهاب معها، يظل بعدها ينتظرها آخر النهار على رأس شارعهم، تنبسط أساريره عندما يرى أكياس الفاكهة تتدلى من يدها.

علّمته، كبر، صار الآن يزحف رويدًا رويدًا نحوحياةٍ جديدةٍ، موظفًا في إحدى شركات الاتصالات الشهيرة؛ يتقاضى مرتبًا معقولًا، سيكبر يومًا ما، منع والدته من العمل في بيوت الآخرين.

عاد «الأفندي» من رحلته في الماضي، خجل من نفسه، بحركةٍ سريعةٍ أخرج منديلًا ورقيًا، جففّ عرقه، استمر في مراقبة السيدة وهى تتحدث، متلصصًا عليها دون أن يشعر بذلك الراكب الآخر الجالس بجانبه.

خلع «الأفندي» نظارته، انشغل بتنظيفها قليلًا، أعادها كالبرق إلى مكانها، بينما التفت ثانيةً للطفل الذي راح في سباتٍ عميقٍ بعد فترةٍ من الصراخ.

كانت السيدةُ قد أنهت مكالمتها، وظلت تُعدّل في انكسارٍ شديدٍ وضع ابنها النائم، وقبل أن تقف السيارة، قذفته على كتفها، هبطت بسرعةٍ،

وسارت مبتعدةً تحاول تفادي السيارات المارة في الشارع، بينما كان «الأفندي» يُشيعها بنظراته الحانية، ثم مدّ يده في حافظته ليخرج صورة والدته التي كانت لا تفارقه أبدًا.

***

ميتة ثانية لميّت قديم . علي لفتة سعيد

العراق

خرجت لتوّي بجسدٍ آخر، كان القحط يلازمني أو هكذا أرى، قضيتها لا أرى، لا أسمع، لا أتكّلم. كان السؤال معلّقًا في ظلمتي، لماذا أنا بعيد عن أهلي، مثل منفيٍّ ساقته الأوضاع المرتبكة إلى مكانٍ مجهول، ربما أعلم أين أنا، لكني لا أرى حتى بصيص الضوء، تداهمني أشياءٌ جميلةٌ في الكثير من الأحيان، أرى أمّي وأبي وزوجتي وطفلي الوحيد، الوجوه ذاتها ترافقني منذ زمن طويل لا أعرف مداه، أشعر أن العمر توقّف منذ أن رمتني الحرب في هذا المكان المجهول الذي لا أحد يدركه غيري، ربما الله وحده يعلم أين أنا بالضبط، يوميا أحدثه عن الحياة وأحلامي في أن أعود إلى بيتي الجنوبي.

لا شيء غير الظلام والهذيان، لا أفرق بين الليل والنهار، الذاكرة تختزن أصوات الانفجارات وصراخي على الجنود أن اختبئوا، لا أحد يستحق الموت، ولا تنتبهوا إلى اللحظة الأخيرة فإن جاءت لا يسترها ساتر ولا يمنعها اختباء، كنا نضحك في آخر لقاءِ جمعنا، نضحك بقوة، ونشتم

ونسب، والساتر مثل أفعى ملتوية، أختبئ بين منحنيين حادّين لأتّقي شرّ الشظايا.

الوقت بطيء وأنا أستحضر وجه أمي وهي تأتيني، أشعر أنّي في الجنة تماما، أسالها عن شيلتها التي تعصّبت بها وهي تودّعني بطاسة ماءٍ لم تنفع في آخر التحاق لي إلى الحرب، ابتسم لها وأقول إنك لم تكبري، ما زلت على جمالك الجنوبي الموشوم بأشكالٍ زرقٍ كأنك تخافين الحسد فينتشر في كلّ شيءٍ ظاهر للعين، أسألها ضاحكا، هل هناك وشمٌ آخر لا يراه غير أبي؟ كنت أسمع صوته، يأتيني بعقاله الأسود العربي وبشماغه اللندني بمربّعاته السود والبيض وهويصرّح بمحبة:

ـاستحي ولك هاي أمك!

أقول له مازحًا:

ـ بوية من يعاونك على زراعة الأرض؟

لم يجبني ولم أسمع منه جوابا طوال أعوام غيابي، لكنه بدهاء الجنوبيين الذين يدركون معنى (الحسجة)، يترك زوجتي تدخل لي مفروشة الشعر كأنها حورية سمراء، أفرغت يديها لتوّها من فوهة تنّور، ورائحة الخبز تملأ المكان الذي أنا فيه، أحاول أن أجلس لأزيل عن جسدي لزوجة

الرقاد الطويل، لكنها في لحظة خجلٍ تمسك يدي الممدودة إلى أسفل بطنها تقبّلها وتهرب، تاركة ابني الصغير وهويضحك بمكرٍ واسمعه يقول:

ـ آنا انتظرك بوية لا تغيب.

لكن الغياب طال كثيرا والظلام يسود بشدّة ولزوجة رقادي تزداد سمكا، كلّ شيء متوقّف عن المسير وكل شيءٍ ساكن وراقد وثابت وغير متحرّك إلّا الأحلام أو الهذيان أو على الأقل هكذا كنت أشعر، ربما لم أستطع فتح عينيّ لأرى، لكن الأشياء كانت تأتي إلى بذات الوجوه والسحنات ونبرة الصوت، حتى شجرة السدر التي زرعها جدّي التي كنت أرميها بالحجارة، ظلّت بذات الارتفاع وذات النبق الذي يسقط أسفل قدمي، وألّمه وأضعه في كيسٍ مخروطي صنعته من ورق كتابٍ مدرسي لأمنحه لحبيبتي، كل ما حوله أراه الآن وكأن الاشياء من حولي بدأت تتحرك من جديد، مما يثير الاستغراب، لكني لا أعلم لماذا لا أتحرّك، كنت أريد رؤية الضوء حقيقة وليس كما أراه وأنا مغمض العينين، نورٌ أبيض ينفتح لي لأرى ما يشبع الفراديس التي حدّثني عنها أبي وهويعلّمنا مخافة الله والإيمان والدفاع عن الوطن والشهادة، وأن

الآخرة في الجنة أفضل من الحياة التي تهبنا جهنم، نور ساطع يوضح لي كلّ شيء أخضر وأزرق، وحتى ألوان قزحٍ، وثمة قطراتٌ حمر تخرج من قحفة رأسي فأشعر بثقبٍ هناك لا أتذكر بسببٍ من صار ومن أحدثه وكأنه ثقب برصاصة أو شظية أو بفعل هذا الرقاد الطويل، الثقب كأنه المسؤول عن معرفتي أني في مكانٍ آمنٍ، وأدرك ما حولي دون أن أتحرّك، يداي الممدودتان وساقاي الملتصقتان ووجهي النائم على خدي الأيمن بذات الوضع.

لم أشعر بالعطش من قبل، الضوء الساطع أعلمني أن عمرًا مضى، لم أجع أو أعطش أو أتمرّد أو حتى أشعر بالرغبة الجنسية، وأنا ابن القرية الذي لا ينام دون أن يفرغ ما يجعل شعر رأسه يقف، كلما مرّت زوجتي أمامي بنصف ثوبها أوانحنت لترفع صينية الطعام، ياه، كلّ شيء كان جميلًا في البيت، لكن لماذا أشعر بالعطش، صرخت بقوّة إني عطشان، يا أبي يا أمي، أنت أيتها الزوجة تعالي واجلبي لي الماء، أنت يا ولدي قل لأمّك أن ترويني، أردت أن أتحرّك ثمة ما هوجاثمٌ فوقي، لم أستطع فتح عيني لكنني أشعر أن صراخًا هائلًا يمرّ بفمي ويخرج من ثقب رأسي، فتتحرّك الأرض يمينًا وشمالًا، أحاول رفع يدي فتهتزّ الأرض وأشعر

بارتفاعها إلى الأعلى، ولم أزل أصرخ أني عطشان لكل شيء، أنا بحاجةٍ لمن يرويني، كلّ بطريقته، شعرت بالتعب قليلًا، فسقطت قطرةُ ماءٍ على فمي، كان طعمها ترابيًا، صرخت من جديد وكأن الأهل يرشّون حولي الماء الذي تحوّل إلى نافورةٍ تنبع من فوقي، ثم صار الماء قويًا حتى لكأنه روح نهر دجلة الذي كنت أقف عنده في آخر رؤيةٍ لي قبل أن أنفى أو أتمدد في مكاني هذا، فجأةً وجدت نفسي أتحرّك، أخذني الماء بأمواجه المتلاطمة، يدخل إلى أسفلي ويحرّكني إلى الأعلى، لكنّ عيني مغمضتان ويدايّ مكتّفتان مع ساقي وثمة نقصان في جسدي، والماء يتحرّك بسرعةٍ عجيبة، يدخل في جسدي نافورة بثقوبٍ عديدة، وأعضائي المتبقية بدت وكأنها ملتصقةً من كثرة الرقاد، غابت أجزاء من كفّي ولحمة ذراعي، أخذ قدميّ وربلة ساقيّ وجزءًا كبيرًا من أردافي، كان الماء سريعا وكلما كنت أتنفس وارتوي أشعر بنقصانٍ جسدي، أشعر بأن جسدي مندفعٌ مع موجٍ سريعٍ أحدثه فيضانٌ عجيبٌ، تمنيّت لواصطدمت ببلمٍ من أبلام نهر الغراف، بالساتر الترابي الذي كنت أنام في أحد ملاجئه، بجذع نخلةٍ أو حتى صخرةٍ كبيرةٍ لتكون مصدًّا؛ فقد بدأ جسدي يتفتّت وتكثر ثقوبه، صرت بعيدًا عن مكان منفاي ولا أعرف أين أنا، شعرت بخفقة

هواء وتحسّست وجهي فوجدت إن لي عينًا واحدةً ونصف أنف، وأذنًا واحدة أشبه بملعقة امتلأت طينًا وماءً. لا شيء يصدني كي لا أندفع مع السيل الغريني الهادر، فقلت ربما سيتوزّع جسدي على كلّ هذه الأمكنة، فلا أحمل بعدها حتى معناي، خاصة وأن رمانة كتفي الأيمن قد انخلعت وهربت مني لتكون ربما طعما لأفاعي الماء.

من بعيد رأيت رجلًا ينظر باندهاشٍ إلى ما حوله، كان يدخن، أردت الصراخ فوجدت لساني وقد تآكل نصفه، فتمنيت أن يجرفني الموج إليه، كان الدعاء معلّقًا في بقايا لهاتي لارتطم فجأة، وجدته يسحبني من شيءٍ يلف بطني، يضعني على شيءٍ يابس، أشعر بيديه تلمسان جسدي، باحثًا عن شيءٍ ملتصق بصدري، بصعوبةٍ بالغة وجدته يقرأ في قرص معدني، صرخت فرحا، إنه سيعرف اسمي، هذا القرص الذي كنت أحافظ عليه، رأيت مما تبقى من عيني الوحيدة، إنه ينادي على رجل بالقرب منه ثم صاروا ثلاثة، كان يريهم القرص المعدني فعرفت أنهم قرأوا اسمي وحتى مدينتي وقريتي، كنت قد حفرت كلّ شيء على ظهر القرص، وكان رفاقي يضحكون، وأخبرتهم أن العنوان الكامل دليل عثور إذا ما غدرت بنا الحرب، وسيكون دليل حضور لشاهدة جديدة، صرخت

حينها: أرجوكم خذوني إلى أهلي، إلى الوجوه التي لم تفارقني، وقبل أن أكمل توسّلاتي، انغلقت عليّ منافذة الرؤية، حين لفني الرجال الثلاثة بشيءٍ ناعم، ثم حملوني بهدوءٍ على ظهر شيء يتحرّك، لاأعلم كم لبثت محمولًا، كنت أنتظر فعلًا، أشعر به سيكون مفرحًا.

سكن الزمن في رأسي المثقوب، وشعرت بأيادٍ تزيح عني الشيء الناعم لأرى رؤوسًا فوق رأسي وظهورا منحنيةً وأفواهًا فاغرة، وجوهًا كبرت ملامحها جدا، أسمع صوت أمي وبيديها وهي تتلمّس صدري، أشعر بابني قد رمى جسده فوقي وهويصرخ ويصيح: (بوية). ثمة أناس كثيرون كانوا ينظرون إلى بعضهم غير مصدّق، كنت أنتظر أن أسمع صوت أبي الذي جاءني وكأنه حشرات عتيقة تحمل ملامح الحمد والشكر لله لأنه عثر على جسد ولده المفقود، سمعته يقول ٣٧ عامًا من الغياب وها هوالولد يعود، سمعت، إن المأتم الآن سيقام، أردت أن أصرخ إني أراهم وأسمعهم، أريد أن أحضنهم جميعا. لكني عدت لأختنق، لقد لفّوا ما تبقى من جسدي بقطعة قماشٍ بيضاء، ثم وضعوني داخل حفرةٍ من جديد.

***

حالة. كريم علي محمد

مع شقشقة الفجر وفي ضوئه البارد، ارتدى أبي صاحب السبعين جلبابَه الرمادي ودفن رأسه في طاقيته الفلاحي، بدا لي من الخلف منتصب القامة أكثر من المعتاد، أما أنا فقد تجهزتُ سريعًا، قفزتُ في "جيبتي الچينز" الفضفاضة وبلوزتي المضادة لرصاص المتلصصين، نظر لي أبي مدعيًا الصمود وربت على كتفي الذي كاد أن ينافس كتفه، وقال لي:

ـ إحنا رايحين النهاردة لاجل ما تتعرضي ع الدكتور، وممكن...

ثم صمت قليلًا، وأردف قائلا وهويغرب بنظره بعيدًا عني:

ـ ممكن تقلعي هدومك هناك.

أشعل سيجارته السوبر بلهب يرتعش من برد طوبة ويد تهتز، أربكها الخجل والعجز، لم أبدِ أي اندهاش، فقط حُمرة الخجل كسحت ملامحي أمامها وسرت برودة أجهل كنهها ومتى وكيف سالت بين خلاياي حتى نخاعي، رعشة بسيطة طالت أناملي ونظرتُ في الأرض ولم أشقَ فمي بكلمة.

وصلنا المستشفى وأبي يغمغم:

ـ يا رب يكون دكتور ابن حلال ويتقي ربنا في جسم البت.

مررنا من البوابة التي يجثو أمامها أفراد الأمن، وقد لاحقتني النظرات رغم أنهم قد عالجوا الأوراق، قال أحدهم عظيم الجثة طويل السالف:

ـ التشخيص: تكيسات ليفية بارزة بمختلف الجسم، عرض جراحة.

فازدرد أبي ريقًا ونخع جفنه وطأطأ رأسه.

دخلنا، مرقنا من أمام المشرحة فانقبض قلبي، كما قبض أبي على كتفي وشذر الحجرة بإرتياب

دخلنا مكتب المدير لإمضاء ورقة الموافقة على أنها حالة تعليمية، وذلك ليتسنى لنا إجراء عملية معقدة كاستئصال وترقيع وتجميل، تطلع فينا سكرتير المدير وشطر سلام أبي عليه بقولته:

ـ "هووس، المدير وراك".

نحانا بيد قهقرتنا معًا، وفرش يده الأخرى أمام المدير، مضينا الورق، ثم بعد انتظار ساعة مضى أبي بالموافقة ومضى المدير بالعلم والمباشَرة.

خرجنا، واستلمنا عم محمد فراش قاعة (خمسة).

وصلنا القاعة وعينا عم محمد تُمطرنا بنظرات الشفقة، قابلتنا أصداء صوت فخيم واثق رنان(قابلنا صدى صوت فخيم رنان أو قابلتنا أصداء أصوات فخيمة رنانة):

ـ يا محمد.. هات الحالة بسرعة.

زج بنا عم محمد دونما شرح أو إفصاح داخل القاعة، جذب أبي من يده مخلفًا إياه ودفع بي للأمام، تسلمتني ممرضة خمسينية، فهدأ روعي وارتحت قليلًا، زال التوتر، أشار من داخل كرسيه الشامخ وجسده المتين، ونظم حروفه كلًّا على حدة:

ـ قلعيها يا مشيرة.

حيث لا ضوء توقن معه بموضع يدك؛ شرعت مشيرة قائلة:

ـ يلا يابنتي.

وهي مطرقة هربًا من النظر في وجهي، ساعدتني في خلع ملابسي وسترنا الظلام فلم أشعر أني عارية، ولم تجرفني بعد موجة الخجل وشعوري برخص جسدي.

أضيئ النور، لم يكن طبيبا، كان مدرجا به الدفعة كاملة!!

سقط أبي مع صياح الطلبة، طالبين استدارتي يمنة ويسرى.

سقط ميتًا، وتركني أعود للبيت لوحدي.

***

انتهي وقت المزاح الآن، وما كنا نراه بعيداً أمسى الآن قريب، سلسلة النيازك الضخمة اقتربت جدًا من الأرض، وأمسى كابوس دمار الأرض واقعًا يعيشه الكوكب الذي لم يعد لديه إلا أربعة عشرة ساعة على الارتطام المتوقع وتفتت الكوكب، نحن نعيش الآن آخر لحظات كوكب الأرض يا سادة.

ملوك الدول الغنية والأثرياء والنخبة من علماء الكوكب استقلوا هذا المكوك الفضائي الذي يسمى سفينة نوح مع بعض العينات من الحيوانات على أمل استعمار أي كوكب يصلح للحياة إن وجد.

ألقى مذيع التلفاز بهذا البيان وانقطع البث إلى الأبد، تاركًا العالم كله يضرب أخماسًا فى أسداس بلا جدوى.

أما أنا لم أكن أعرف ما الذي عليَّ فعله على الإطلاق، لم أعرف ما الذي يجري، ووسائل الاتصال أصبحت جثة هامدة، أصيب العالم بالشلل التام، ذهبت الحداثة بلا رجعة.

أما البشر، فقد أصابتهم حالة من المشاعر المضطربة، انقسموا إلى قسمين، قسم منهم التزم بدور العبادة بأنواعها ومختلف ديانتها، وقسم

آخر لا يؤمن بفكرة وجود إله أصلًا، انخرط فى الملذات والشهوات باعتبارهم قد حجزوا مكانًا فى الجحيم مؤقتًا لاعتناقهم هذه المبادئ الشيطانية.

ووسط هذا الخضم من الأحداث لم يكن يعنيني كل هذا، فلتذهب الأشياء والموجودات إلى الجحيم، إلا هي، ريم، حبيبتي التي كانت تصنع موجات السعادة والفرحة في قلبي بمجرد وصول رسالة منها، وكنت بدوري أبعث إليها برسائل مماثلة فى مسكنها بجبال أطلس. كنا نتناقش، نتبادل عهود المحبة، ونحلم ببيت يجمعنا يوما ما، بطفل ربما ننجبه معا، بالاختلاف على ألوان منزل لم يُبنَ بعد، وحينما كان الاتفاق علي السفر للقاء أهلها، ورؤية من تخفق لها ضربات قلبي، حدثت الكارثة، وانقطع بيننا كل شيء، اللعنة على التكنولوجيا التي لا ترحم العواطف البشرية.

لذا، لم أتحمل أكثر من هذا، فكان القرار بالسفر إلى شمال أفريقيا حيث تقطن في هضبة الشطوط بجبال أطلس، وإن كان مقدرا لي الموت فلنمت معًا والأمر لله.

خرجت لأبحث عن أي وسيلة ذهاب إلى هناك، الزمن يمضي سريعًا،

ولم يتبقَ على الارتطام والكارثة إلا ساعات قليلة. توجهت إلى محطة ناقلات الهوفر كرافت أو الباصات الطائرة لأجد المحطة فارغة من البشر عكس ما توقعت، الناس تذكروا الآن الله، ترى هل أغلق باب التوبة الآن؟

توجهت بالحديث إلى سائق الباص سائلًا إياه عن رحلة تذهب إلى جبل أطلس، فسألني إن كنت أحب أن ألاقي الموت على البحر في هدوء إن كان هذا سبب طلبي للذهاب إلى هناك.

ـ "بل أحب ملاقاة الموت فى أحضان من أحب متزوجا إياها"، لأجيبه.

ـ "إلى هذه الدرجة؟ يا له من وفاء نادر!"، وتظهر علامات التأثر على وجهه، ووجدتني أشكره وأسأله عن الخطوة القادمة.

يجيبني ضاحكًا بأنه إذا كان الموت آتيا لا ريب، سيتقرب إلى الله بتوصيلي إلى هناك لأتزوج فتاتي، عسي الله يغفر له بها كجبران خاطر.

كان الطريق مفتوحًا إلى هناك، لم يتعدَ وصولنا هناك الساعات الأربع، حتى كنا عند دير سفح جبل أطلس العظيم، الذي كان في ساحته الأمامية العديد من البشر الذين انخرطوا فى صلاة واحدة لله بعدة لغات ولهجات وأديان.

بحثت عنها كثيرا، ولم أصل إلى شيء، سألت الجميع عن فتاة تسمي ريم تشبه طيف نسيم البحر هذا؟ هل شاهدها أحدكم من قبل؟ أية حماقة قمت بها يا رجل؟

يجب أن تفكر بهدوء، إنه الفجر الآن، تذكر عادات ريم، إنها تحب المشي صباحًا على البحر، زيارة مزرعة جبل هضبة الشطوط.. نعم المزرعة، لم أكذب خبرًا، ذهبت إلى هناك، مرت عدة ساعات ولم يتبقَ على دمار الأرض إلا خمس ساعات فقط، أصابني الملل والحزن، ثم فجأة وجدت من يربت على كتفي ويقول:

ـ "يا لك من حبيب عنيد مثابر..."

التفتت لأجدها هي ريم، ولم أدرِ إلا وأنا أعانقها وأبكي.

أخبرتني باكية أنها كانت تخشي أيضاَ ألا أصل إليها، وأنه إن كان هناك بد من الموت فلنمت معاِ. حكام الممالك أخذوا سبيلهم للنجاة وتركوا الفقراء يواجهون الموت، وأن...

أجبتها أن الحكام للأسف يرون أنفسهم دومًا أغلي من شعوبهم، فكانوا يتمتعون بكل سبل الراحة والرخاء، وبالتالي فإن كانت هناك فرصة واحدة للنجاة سيحتفظون بها لأنفسهم، وها قد نجوا وتركونا..

تجذبني من يدي وتصر أن نصعد إلى قمة جبل أطلس، تسلقنا أنا وهي فى رحلة شاقة استغرقت ساعتين، حتي وصلنا لمنطقة الكهوف.

هناك كانت المفاجأة، كان هناك عدد من البشر يتجاوز الثلاثمائة من رجال ونساء وأطفال وبعض الشيوخ يتجمعون هناك مما جعلني أسأل ما هذا؟

لتجيبني أن هؤلاء من اختاروا الموت هنا، علي أمل أن تُكتب لهم النجاة، فإن نجوا، سيكون هذا منة من الله، وإن لم يكن، سيكونون آخر الموتي ويكونون قد نعموا بوقت أطول قبل أن يحصدهم الموت.

جلست أنظر اليهم كثيرا، كانوا يمارسون حياتهم وكأنهم سيعيشون أبد الدهر، هناك من يزرع وهناك أطفال ترسم وهناك نساء يعددن وجبة طعام أخيرة، سألت ريم:

ـ "هل جُن هؤلاء القوم؟ أم لم يبلغهم خبر نهاية العالم؟"

ـ "إنهم يعرفون تمام المعرفة ما هم بصدده، وهم يدركون أنهم لايملكون آجالهم كي يستقدمون فيها أو يستأخرون، فالأعمار بيد الله، لذا فقد أحسنوا الظن بالله ويعيشون آخر لحظاتهم بإيمان وتقبل لمقاديره.

فجأة دوت انفجارات عدة وتساقطت أجزاء كبيرة من النيازك والمعادن

من السماء، فتراجع الجميع إلى الخلف.

أما البحر المتوسط فقد فارت مياهه من الغليان وبدأت موجات المد في الارتفاع كالجبال، كانت الأرض الآن تتنفس آخر أنفاسها.

صرخت فى الجميع ليتراجعوا إلى عمق الكهف، وأحطنا الأطفال بدائرة بشرية وريم تمسك بيدي فى شدة والمياه تعلونا وتنحسر ثم تعلونا وتتدفق إلى الكهف وتغرق الجميع ثم تنحسر وهكذا حتى فقدنا الوعي.

لم أفق إلا علي لمسات ريم تخبرني أن الأمر انتهي.

اعتدلت بصعوبة ثم نظرت إلى الكهف لأجد عددًا كبيرًا من المجموعة قد مات وتبقى فقط القليل، وهناك من يبكي علي موتاه وهناك من التزم الصمت فى حضرة الموت، ما الذي حدث؟

فأجابت أن النيازك سقطت وغطى البحر الأرض كلها باستثناء هذه القمة الجبلية، وخمّن ماذا، لقد أصبحنا آخر الناجين على الأرض.

لأجدني أقول: "الحمد لله على قضائه، وكيف سنبدأ من جديد؟"

ـ "سنبدأ من الصفر، دومًا تجد الحياة طريقًا للاستمرار".

مرت أيام طويلة حتي انحسرت المياه كاشفة عن مصير مظلم سيقت إليه الأرض، وبدأنا فى التعايش ومحاولة التقاط الثمار وبعض العشب

للطعام حتى كان هذا اليوم الذي دخلت فيه الكهف فوجدتها والأطفال يرسمون جدرانه بمظاهر حضارة الأرض الماضية، وحين استفهمت منها عن جدوى الرسم، أخبرتني بفخر وثقة أنها والأطفال يرسمون هذا حتى تستطيع كل الشعوب التي ستأتي بعدنا أن تعرف أننا كنا هنا يوما ما.

///

بعد عشرين ألف سنة، تحديدًا عام ١٩٥٢.

أحد علماء الآثار يشرح لتلاميذه جدران كهوف تاسيلي في الجزائر.

العالِم: وهكذا يا أولادي، ترون هذه الرسوم العجيبة قبل ظهور الإنسان، رسوم غريبة عن بشر مثلنا، وتكمن غرابتها أننا نرى هنا رسومًا لرجال يرتدون بدلات غوص وسفنًا طائرة فى الهواء ورجالًا يطلقون أشعة من أسلحة ونساء يرتدون التنانير، مما يجعلنا نسأل هل كان هناك حضارات أخرى قبلنا ؟ وإن وُجدت كيف انتهت؟

سؤال سيبقي بلا إجابة.

***

شَنّوق أبوشفة. محمد الغربي عمران

اليمن

جلس عاريًا خلف نافذته بالدور الخامس، يتابع حركة أحد الأزقة العميقة بين صفوف الدور، متمتمًا:

ـ ستظهر الآن، فقد حان موعد وصولها!

يرفع ناظريه متأمّلًا أفقًا كهرمانيًا يحتضن جبال صنعاء البعيدة. تسحره واجهات الدور العتيقة، أسراب الحمام تلوب قبل هبوط الليل، بهاء قباب المساجد ومناراتها الباسقة. غاص قرص الشمس خلف شفاه الجبال العالية، لتبهت الألوان، وتماهت زخارف المنارات «الياجورية» وواجهات الدور، لحظتها ارتفع صوت مؤذّن الحيِّ، صديقه طنهاس، الذي يميّز سعادته عن حزنه من خلال نبرة صوته، قدَّر أنّها لن تأتي، عاد يتسلّى بمضغ وريقات القات، مشغولًا بمراقبة تدفّق ذرّات المساء الهابطة من شاهق الجبال، لتحيل دُور المدينة إلى كتل معتمة إلّا من ثقوب أضواء خجولة هنا وهناك. تنصهر الملامح المحيطة رويدًا رويدًا، لتتحوّل إلى أشباح غامضة. يواصل مضغ قاته محاولًا الحفاظ على طيب مزاجه، تباغته لفحة برد عبر النافذة، يشاهد أزقة المدينة تأوي قوافل الريح

العتيقة، يتمتم:

ـ لقد فات موعد غزال ولن تأتي بعد الآن!

يغلق نافذته مصاحبًا ظلمة المكان. يُجيل ناظريه في عتمة غرفته، يعرف مواقع الأشياء:

طاولة قصيرة أمامه عليها جهازه المحمول، وإلى جواره باقة أغصان قات لُفّت بمنديل مُبلّل، «متفل» معدني تحت الطاولة، ونارجيلة قصيرة يمتدُّ خرطومها حتى فمه، يومض جمرها بين وقت إلى آخر، إلى شماله متّكأ غزال فارغ، وإلى يمين الباب شمّاعة شُنقت عليها ملابسه، وأعمدة كتب متجاورة تستند إلى إحدى الزوايا.

بعد وقت، عاود صوت صديقه مؤذّنًا لصلاة العِشاء، تمتم بنزق:

ـ سأقضي ليلتي وحيدًا!

تعوّد أن يعيش ظلمة لياليه، مستمتعًا بعريه، يحفظ زوايا سكنه عن ظهر قلب، أمام باب غرفة مقيله موقد نحاسي، يتشامخ وسط حجرة تتوسّط بقيّة أبواب الغرف، يقلّب الجمر لينعكس وهجه على ملامح وجهه الكبير، يلتقط عدّة جمرات ويعود إلى متّكئه مواصلًا ليلته وسط ظلمة يأنس إليها. لايستقبل أحدًا في سكنه. غزال هي الاستثناء. فتاة في

العشرينات تعرّف إليها عبر النت، هو من كان يفضّل الأربعينيات، جاءته هذه لتغيّر كلّ إيقاع حياته. تتسلّل خلسة بين ليلة وأخرى إلى سكنه في الدور الرابع لتشاركه ما شاء لها ثمّ تغادره. كذلك يزوره صديقه طنهاس، زوج الشريفة وإمام مسجد الحيّ، يأتيه في ليالي الجُمع، يدير المفتاح بعد عودته من إقامة صلاة العشاء، ليشاطره مضغ القات ورشفات من دموع الأسد، أو المُكَحّل، كما يحلوأن يطلق عليه، ثمّ يصعد إلى الدور الخامس، حيث تنتظره زوجته الشريفة مالكة الدار، كي يقضي ما بقي من ليلته، تتأبّط قامته القصيرة صاعدة به سلّم «طيرمانتها» العبقة بروائح البخور، وكؤوس نقيع الزبيب وأطباق أخرى تخصّ ليالي الوصال، وهي تلبس الشفيف، موقنة بأنّ ذلك يثير بقايا مكامن فحولته، ثمّ إنّ نوافذ الطيرمانة مطلّة على الجهات الأربع، ومنظر ليل صنعاء يرفع من نشوته.

يستمرّ شنّوق متماهيًا مع ظلمة سكنه، متلذّذًا باستحلاب أوراق قاته. وليزيد من وجده، يحتضن جهاز «اللابتوب »، باحثًا بأصابعه عن أزرار التشغيل، ما يلبث أن ينعكس ضوؤه على عينيه الجاحظتين ووجنتيه المكوّرتين. يبتسم لظهور صفحته على الفيسبوك «ابن الحاج»، بصورة

قطّ ذي عينين زرقاوين، يعرّج بعدها على صفحة غزال، لتظهر قبّة خضراء، وجملة كُتبت بالخطّ الكوفي:

«حسبي الله ونعم الوكيل». يدعك تكويرة خدّه بتلذّذ، ويرقن إليها: «ياعيباه، ليس من عادتك أن تخلفي الموعد. أتمنّى أن يكون المانع خيرًا»، ثمّ يضغط زرّ الإرسال، متمنّيًا استجابتها فيقضيا الليل في دردشة إيروسية، انتظر قليلًا، ثمّ أضاف: «أنتظر ردّك فلا تتأخّري.»

وشغل نفسه باستعراض رسائل قيد الانتظار. تستهويه رسائل «قطط الفيس»، صفة يطلقها على البنات، إلّا أنّ ما يربكه هو تلك الأسماء المستعارة، تلك التي يتعامل معها بحذر شديد، وبحسب تجربته، فإنّ من يتخفّين خلف واجهات قرآنية هنّ الأكثر شبقًا، بدوره يصنّفهنّ إلى مجموعتين: قطط وديعة، وقطط مخربشة. لكنّ ما يخيفه فعلًا، هو تخفّي بعض ال «جحندلات»، كما يحب أن يطلق على فئة الذكور ذوي الأسماء الأنثوية، فما إن يكتشف أحد هؤلاء حتى يسارع إلى حذفه. هذه الليلة لفتت انتباهه رسالة جديدة من شخص كتب اسمه "Adel". حكّ أنفه علّه مر عليه. وحين لم يتذكّر فتح الرسالة:

«أخيرًا وجدتك! شكرًا للمستر مارك، أنتظر ردّك!».

ظل صامتا يفكر كيف يصوغ رده على اسم لا يتذكر أنه مر عليه يومًا.

هدف مُحقق . محمد جمال

وأخيرًا؛ ظفر بتذكرة لحضور "الكلاسيكو"، شغف رؤية ميسي ورفاقه وتحديهم لكريستيانو ورفاقه تخطى حدود الخيال، ها، وقد أصبح الخيال واقعًا، حذرته أمه "شقا خمس سنين يابني هتضيعهم هدر"، لم يكترث ولم يأخذ بالنصيحة، فمنذ عَلِم بفوزه بتذكرة حضور المباراة بعد أن اشترك في إحدى مسابقات وسائل التواصل الاجتماعي، جُن جنونه، وبات لا يهتم بشيء سوى التجهيز للرحلة.

حَطت قدماه في مدريد، انبهر بكل ما فيها ولازال الانبهار الأكبر مُنتظرًا حتى ليلة الغد عندما يجلس على إحدى مقاعد "سانتياجوبرنابيو"، قضى يومه فى التمتع بشوارع المدينة الساحرة، اقترب من ساحة السحر "ماري سول".

انبهر بحلقات السحرة والموسيقيين، واختلاف الوجوه، وألوان النسوة ورسماتهن المختلفة، راح تركيزه عند حلقة من الناس تتوسطهم فاتنة ممشوقة القوام، شقراء بشعر ذهبي وعيون زرقاء تحاكى لون سماء صافية، ذراعان عاريان وفخذ مستدير رخامي، تحجب الفخذ الآخر ليزداد الشغف، ذهب به سحر جمالها لعوالم أسطورية، ظلت ترقص

"الفلامنكو" واستثنه عن الجميع، تبعث له رسائل بعينيها حتى نهاية الرقصة.

انصرف الجمع واقتربت منه، وقفت أمامه وقالت:

ـ شرقي؟!

حان وقت اقتناعه بالأمر الشائع أنهن في بلاد الغرب يعشقن الشرقيين، ابتسم بوجه يملؤه الغرور، ولم يفكر لحظة عن سر حديثها بلغته.

ـ نعم. وأنت؟

ـ ميلينيا، من أب مغربي وأم برازيلية وولدت في أسبانيا.

ـ علي من مصر.

ترك نفسه ليدها كطفل صغير تلهو به أمه في حديقة واسعة، جرته وهرولت به نحو أحد المطاعم الفاخرة وقالت له: "الجوع يعصر معدتي"، شعر بمسئولية غريبة تجاه أنثى فاتنة غامضة، استغنى عن المال لإطعامها، تأكل وتتحدث وتسأله عن سر حضوره لمدريد، أخبرها بسر مجيئه لمشاهدة "ديربي الأرض"، تركت الطعام واكتسى وجهها بتقاسيم الغضب وهَمت بالانصراف، قبض على معصمها ولسانه يسبق عقله:

ـ ما بكِ؟!

ـ أكره كرة القدم.

أقنعها بالجلوس ووعدها بعدم الحديث عن الكرة مرة أخرى. ارتضت وبمرور الوقت عادت الابتسامة إلى وجهها، ظلت يده في يدها وهما يتجولان في شوارع مدريد.

ولما حل الليل أخذته معها إلى مسرح "يونيفرسيداد"، انبهر بعرض مُبهر، واشتعل قلبه بنار غيرة تنفخ في حطبها نظرات المعجبين بها، خرجا من المسرح، لم تتركه إلا أمام فندق إقامته، عرض عليها أن يرافقها حتى باب بيتها ويعود ورفضت، طبعت على خده قبلة كاد أن يفقد وعيه من سحرها، همت للرحيل وقالت:

ـ لن أراك مرة أخرى؟

ـ سأكون في الساحة عندما تبدأين الرقص.

ـ والمباراة؟

ـ ربما اكتشفت الآن أن هديتي ليست التذكرة بل هي لقاؤك.

ـ من أجل هذه الكلمات عندي لك مفاجأة، المسرح غدًا أجازة بسبب المباراة اللعينة، تعال ولي طريقتي في الدخول وسأرقص لك وحدك.

ـ فلتذهب المباراة إلى الجحيم.

استشعرت غيرة الخد الآخر وطبعت عليه قبلة أكثر سخونة وتحركت وهي تقول:

ـ سأحزن كثيرًا إن لم تأت.

قبض على معصمها وكأنه اعتاد على هذا، وضع يده في جيبه وأعطاها تذكرة المباراة وقال:

ـ أيكفيكِ ضمان أكثر من هذا؟

أخذتها من يده وتحركت وتركته في حلم جميل بعد أن وعدته باحتفال يليق به.

عند الموعد؛ وقف أمام المسرح المغلق، يتملكه القلق من نظرات أفراد الأمن، ظل يلف ويدور ويذهب ويجيء ويفكر في عدم حضورها، بينما هي كانت ترتدي قميص لاعبي برشلونة وتصرخ بين المشجعين بالمدرجات.

***

قطاران. محمد عبد العزيز

تباطأ القطار رقم ٣٦٥، المتجه من الإسكندرية إلى القاهرة، وتعالى صوت صفيره المتصاعد عند دخوله محطة كفر الزيات، وانتشرت في السماء أدخنته معلنة وصول القشاش إلى الرصيف رقم ٧.

فتحت عينيّ المتكاسلتين على صوت عم غانم الذي يبيع الترمس المصفوف في كيس بلاستيكي شفاف في طرفه نصف ليمونة خضراء، أشار إليّ مبتسمًا، فرددت تحيته ثم نفحته جنيهًا كاملًا دون أن آخذ كيسًا، فأنا لا أحب الترمس.

تصاعدت أصوات الباعة في كل حدب من القطار، كنت أحفظ عباراتهم الدعائية عن ظهر قلب، فأنا استقل هذا القطار يوميًا منذ أمد بعيد، عرفت كل الباعة والكمسارية وحتى سائق القطار.

توارد الناس كغثاء السيل، طمعًا في اللحاق بمقعد شاغر يقيهم وغثاء السفر، ومعاناة الوقوف في طرقات القطار، وكما توقعت، نشب شجارٌ بين مجموعة من الركاب على أحقية الجلوس وتصاعد صريخ النسوة الملتحفات بالجلابيب السوداء، بينما حاول العقلاء فض النزاع وقال رجل كبير خط الشيب لحيته:

ـ صلوا على النبي ياجماعة، كله هيوصل، متلهوجين ليه؟

نفس الأحداث تتكرر كل يوم تقريبًا باختلاف تفاصيل بسيطة، جنود في الجيش يرتدون الأفارولات الرسمية، بائعة الحليب التي تفترش الأرض وتغطي بضاعتها بمنديل محلاوي أصفر اللون، طالبة الجامعة التي تختلس النظر نحو زوج وامرأته داعيةً ربها أن يرزقها شخصًا وسيمًا مثله. رائحة سجائر الكليوباترا تعطن المكان، وصوت اصطكاك زجاجات المياه الغازية يبدو وكأنه موسيقى تصويرية رديئة الصنع.

///

توقف على الرصيف المجاور القطار رقم ٥٦٣ المتجه من القاهرة إلى الإسكندرية، مددت بصري نحو العربة المجاورة، حيث يجلس أب وزوجته وبصحبتهما ثلاثة أطفال، أكبرهم بدا وكأنه نسخة مني حينما كنت صغيرًا.

بدرت مني ابتسامة لا إرادية، لم يلحظها الطفل الأكبر، وبدا أن هناك شجارًا بينه وبين أبيه.

حدّثت نفسي ساخرًا: ربما يكون أبوه يرفض مايبتغيه الطفل، ويأبي أن يسلك طريق الرسم والفن مثلما عاندني أبي قديمًا، وأصر على أن أدرس

الطب وأن أرمي حلمي الأثير في القمامة.

تصاعد صوت الأب في غلظةٍ واضحة، قال له في عنف:

ـ لا، مافيش رسم من النهاردة، لازم تذاكر كويس عشان تطلع دكتور زي ابن عمك.

ارتسمت على ملامحي الدهشة، وانتابني الهلع، فما توقعته كان يحدث أمامي بالحرف، حتى أن صوت الرجل كان نسخة طبق الأصل من صوت أبي.

طأطأ الطفل رأسه أرضًا، ثم نظر إلىَّ بعينيه الدامعتين، وكأنه يتوسل إلىَّ أن أنقذه.

فزعت من مقعدي، وتركته متجهًا نحوباب العربة منتويًا الذهاب إلى الطفل وأبيه لأقنعه بخطورة مايفعله.

///

تصاعد بداخلي الغضب، وأنا أهرع إلى الرصيف، سأخبر الأب أن طفله سيكون معقدًا نفسيًا، سيظل حبيس مهنته وأسير حرفة تمتص زهرة شبابه دون رحمة.

عبرت سريعًا نحو الرصيف المقابل، لكن حدثًا عجبًا أفقدني القدرة على النطق.

لم يكن هناك أثر للقطار رقم ٥٦٣، وكأن الأرض قد ابتلعته، العجيب أنني لم أسمع صوت تحرك القطار، وكأنه طار في السماء أو انجذب نحو ثقب كوني.

أطرقت برأسي حزنًا، وهممت أن أعود لقطاري، ثم ما إن التفتت نحوه، وجدته هو الآخر وقد اختفى من على وجه البسيطة، لم يكن له أي أثر.

تلفتت يمينًا ويسارًا بحثًا عن القطار، لكنني لم أجده، لم أجد سوى صحراء مترامية الأطراف، ومقابر تكسو صفحة الصحراء، وعلى طرفها لافتة كبيرة مكتوب عليها "مقابر الصدقة".

***

عندما تختار أن تُسجَن. د. محمد وفائي

نظر في ساعته للمرة الثالثة وهو يتململ في جلسته، لماذا لم يتحرك ذلك القطار؟ لم يعتد منه أن يتأخر تلك المدة، سمع الركاب يتحدثون عن قطار آخر متأخر قادم في الطريق، ومشكلة ما لم يهتم لها تسببت في كل هذا.

نظر من النافذة بسأم، يكره الانتظار، والإسهاب في كل شيء بفائدة أو بدون، يخبره أصدقاؤه مازحين أن قلبه لم يخفق بالحب بعد لأنه لن يقوى على انتظار فتاته بينما تختار ملابسها وتتزين، كما أنها قد تقص عليه قصصًا تطول أمورًا لن يتحمل من هو مثله سماع كل تفاصيلها، ربما كانوا على حق، فهو يفر من التفاصيل كالفار من الوباء، هو نفسه لا يعتقد أن قلبه قد يهيم بفتاة يومًا ما لتحكي له كيف اختارت ذلك الرداء ليتناسب مع لون مرطب شفاهها. قاطعه صوت القطار القادم متهاديًا، تمر عرباته ببطء استعدادًا للتوقف، صوت المفتش يناديه، أخرج له تذكرته مصحوبة بابتسامة باهتة، ثم أعادها لجيبه، والتفت ليرى هل مازال القطار الآخر اللعين هناك، لم ترَ عيناه وقتها القطار، بل رآها، هي.

حارت نظراته أين تستقر؟ أعند تلك العينين الناعستين اللتين شعر في نظرتهما بسكينة فاضت على روحه، تناقضت تمامًا مع اللهيب الذي أشعل قلبه عندما تاه في شعرها الناري الطويل، أم عند أنفها الدقيق الذي بالكاد وَجَدَت فيه مكانًا لقرط دائري صغير، يعلو شفاهًا مرسومة بدقة خالق الأكوان، همس لنفسه: ماهذا الجمال؟!

حانت منه التفاتة فلمح عنوان الرواية التي تقرأها، كاد يقفز مصفقًا بسعادة كطفل تلقى حلواه المفضلة، تلك الرواية التي أنهاها أمس للمرة الثالثة، يالروعتها، لا ليست الرواية، إنه يتكلم عن فاتنته. ارتفع صوت صافرة القطار، فالتفتت من نافذتها، اشتبكت نظراتهما، كانت معركة دخلها ليخسرها، فانعكاس أشعة الشمس على تلكما الناعستين أظهر لونهما العسلي الذي ذاب قلبه فيه بلا مقاومة.

ابتسم وهو يشير إلى الرواية، ويشير لها بإبهامه، إنها رائعة، بادلته ابتسامة متحفظة مع هزة رأس، وعادت لتدفن نظراتها في روايتها، نادى عليها بلا صوت، وقلبه يدق بفوضوية، ربتت نظراته على كتفيها علها تنتبه، وأنفاسه تتسارع كأنه يعدو في سباق، سباق مع الزمن، رفع يده ليدق على الزجاج، لكنه تذكر أن ما يحجبها عنه نافذتان مصمتتان وبينهما

ضجة محطة قطار، يستحيل معها أن تسمع دقاته. لعن سجنه الزجاجي، ثم همس لنفسه، وإن سمعتك أيها الأبله، ماذا تتوقع منها أن تفعل؟!

تنهد وهو يحاول استيعاب ذلك الشعور الذي لم يسبق له أن زاره، ولم يكن يرغب في شيء من الحياة الآن، إلا أن تطول تلك الزيارة، يتمنى أن يهب لذلك الإحساس قلبه سكنًا بلا إيجار، فقط، تبقى تلك الدغدغة اللطيفة تداعب قلبه للأبد، نظر لها نظرة طويلة شابها الحزن، ثم أغمض عينيه ليحفر ملامحها في ذاكرته، فما يشعر به الآن يؤكد له أنه لن ينساها.

علا صوت صافرة ثانية، وبدأ قطارها في التحرك، لكنها أدركت أنها تريد أن تنظر له مرة أخرى، ماذا ألم بكِ، هل فقدتِ عقلَكِ، ولمَ لا؟! وهل كنتُ يومًا أتصف بالتعقل، كما أن ابتسامته الطفولية، ونظراته البريئة اخترقتا حصون قلبها بجيوش من حنان، لم ترَ من قبل كل ذلك الحنان في نظرة رجل لها، التفتت له، لكنه كان ساهمًا ينظر أمامه، أخذت تلوح بالرواية لعلَّه يراها، لكن ذلك الوجه المبتسم المشرق المتفاعل معها منذ دقيقة، صار شاردًا وانطفأت جذوته، بدأ قطارها في الحركة، بحثت عن مقبض لزنزانتها الزجاجية بلا جدوى، بدأت نافذته تبتعد من أمامها، لمحها المفتش في القطار الآخر، وكان آخر ما شاهدته، المفتش

وهو يخاطبه ويشير نحو قطارها الذي انطلق بسرعة كما لوكان من طبائعه الالتزام.

وهاهي بعد سنين عديدة، مازالت تنظر بحنين إلى أي قطار يتوقف بجانب قطارها، لعلها تجده، تريد فقط أن تنظر لها هاتان العينان اللتان منحتاها شعورًا بالأمان لم تجده بعدها، فآثرت البقاء في زنزانتها الزجاجية القديمة منتظرة؛ بينما توقف هو عن النظر من نافذة أي قطار حتى لا يخفق قلبه حزنًا عندما يرى صورتها المطبوعة في ذاكرته تنعكس على كل الوجوه، واكتفى بقضاء مدة سجنه الأبدي في الارتواء من ذكرى لحظات فاقت في حلاوتها سنوات.

***

ضغط. د. محمود عطية

كأنها فوجئت بها داخل راحة كفها التى احتضنتها لأكثر من عشرين عامًا، قبضت عليها بقوة كعادتها؛ خشية أن تفلت من بين فرجات أصابعها وتسقط على الأرض، أرخت كفها، فتحتها ببطء أسقطتها داخلها، انحنت برأسها قليلًا علها تتفحصها بنظارتها السميكة، دِقتها واستدارتها وبياضها الناصع وحجمها المتناهى فى الصغر لأول مرة يسترعى انتباهها!

علاقتها بها بدأت حين تولت شراءها له أول كل شهر منذ أكثر من عشرين عامًا، ولم تنقطع عن شرائها حتى بعد أن تركها وحيدة معها، لم تلق لها بالًا فى البداية، ولا فكرت أن ترى شكلها أو حجمها المتناهى فى الصغر؛ لولا اعتيادها فتح العلبة والضغط بإصابعها على موضعها المدبب فى شريط الدواء لتنزلق ممزقة شرنقتها البلاستيكية الشفافة مندفعة إلى داخل كفها المتكورة لاحتضانها، لما لاحظت أن هناك شيئا يندفع ليستقر داخل راحة يدها الممدودة تحت الشريط لالتقاطها قبل انزلاقها على الأرض.

على غيار الريق كل يوم تدفع بها إليه، يلتقطها بين أصابعه يلقى بها داخل فمه سريعًا، كمن يريد أن يخفيها وراء شربة الماء التى يتجرعها سريعًا خلفها، احتارت فى فهم وتفسير استكانته أمامها وارتعاش أصابعه وهو يتناولها منها ليقذف بها داخل فمه، كأنه لا يريد لعينيه أن تراها أو تلحظها.

أراد الامتثال لعتابها المستمر على ما يفعله بنفسه وبها، والاستماع لنصائح الأطباء بتناول طعامه بلا ملح، والترفيه عن نفسه وتناسى كل همومه، تعجب كيف يمكنه ذلك، لم يتحمل!

لم تيأس؛ فهورفيق العمر سنوات طوالا، حاولت أن تسرى عنه وهى مدركة ثقل ما يعانى منه، مسها الحزن أكثر على قواه التى خارت سريعا وروحه التى تبدلت، حاولت أن تحيى روحه، تطمئنه، تمنت لوتنتزع صورتهما من جيبه، رفض، أصرت، رفض تماما، من حين لآخر يخرج الصورة من جيبه يقربها إلى عينيه، ينظر إليها، تدمع عيناه، يتمعن فيهما، يحدث نفسه بصوت خفيض، لم تستطع أن تلتقط كلمة منه.

عاشت معه الحياة بكل تقلباتها ومازالت، أحست برغبته العميقة فى العيش معهما ثانية، استماتت أن تخرجه من حلمه المستحيل وتأمله الدائم

فيما خلفه رحيلهما وانسلاخهما من حياتهما. البنت والولد ابتعدا، استقلا بحياة أخرى.

البنت الكبرى التى لم يكن يتصور أن تستغنى عنه رأت فيه صورة الأب والرجل المثالى الذى تمنته، شعر نحوها بأكثر من الأبوة، أحست نحوه بأكثر من الحب، ملأ البيت بحيويته ونشاطه الدائمين، صار محور اهتمام البيت كله بنجاحاته فى عمله وصوره التى تنشر بالجرائد أحيانا.

البنت أحبت فى الجامعة مثله، عشقت فجأة، لمح بريقا فى عينيها لم يلحظ مثله طوال عمرها وهى فى حضنه، أخبرته والفرحة تطل من عينيها، تضىء كلماتها:

ـ سيأتى بعد غد، يريد أن يراك، صورة منك يابابا.

لم يشعر أنها كبرت إلا اليوم!

تداعت فى رأسه صور من الماضى، فى الجامعة لعب مع كل الفرق الرياضية، مارس كل الألعاب، كتب الشعر، التقى بها فى فريق الجامعة المسرحى مثَّل أمامها، استحوذ على اهتمام الجميع، شعرت أنه أحب ذلك وسعى إليه بكل ما يملك من طاقة متدفقة دوما، كانت تهوى مشاهدة المباريات الجامعية، التف حولها شباب الجامعة، جمالها كان

الحكاية المفضلة لديهم، توددوا إليها، لم تُعر أحدا أكثر من ابتسامة اعتادت أن تنثرها على من يشاء حظه ويتقابل معها فيظن كل الظن، ولا يأتى الظن أبدا، حتى اشتهرت أنها أحد المستحيلات.

استمتعت بمشاغباته الفكرية مع المدرسين والدكاترة، ظل الأول طوال سنوات الدراسة الجامعية، أرادت أن تعرفه أكثر، ابتسمت له وابتسم لها، شعرت أن انتظارها الطويل وصدها للكثيرين كان حكمة أدركتها الآن، سعى وراءها، أحبته، أحبها، رفض التعيين فى الجامعة، فضل العمل فى إحدى المؤسسات الثقافية الكبرى التى سعت إليه وتحقق له شهرة واسعة. قالت له:

ـ أخبرت بابا أنك ستأتى إليه غدًا، قال لى وهويضحك، إنت كبرتِ قوى كده.

جاءت ابنتهما الوليدة صورة منه، قالت وهى ترضعها:

ـ أعلم أنك تحبنى، ومع ذلك البنت شبهك!

قبَل جبينها وهى راقدة بجانب وليدتهما، رزقا الابن الأصغر، لم يترك هواية أو لعبة رياضية إلا مارسها، نظرت إليه رأت فيه أباه، تذكرت أيام أبيه زوجها فى الجامعة.

امتلأت حياتهما بهما، نسيت كل شىء فى سبيلهما، عاشت تحقق ماتستطيع لهما، تخرج الصغير فى الجامعة، لم يجد عملا يحقق طموحاته، لم يحب كأمه وأخته.

رحل بعيدا، هاجر، بعث إليهما برسائل عديدة، كادت الغربة تأكله، تغلب عليها أخيرا، صورة امرأته وابنه الصغير ببشرتهما الناعمتين وشعرهما النحاسى لم تظهر أية شبه من أمه أو أبيه أو حتى من أخته التى سافرت للعمل مع زوجها.

لماذا يكبر الأبناء دون أن نشعر، يحبون، يرحلون سريعا بعد اعتيادنا عليهم ويخلّفون ذكرياتهم نزيفا فى داخلنا لا ينقطع؟!

لم يمتثل لأوامر الأطباء، زادت معاناته، حاولت معه، تمادى أكثر فى سرحاته، صورة الأيام بذكرياتها الدافئة تهاجمه، لم يستطع مقاومتها، سيطرت عليه، هزمته.

ارتفع ضغطه، انخفض، ارتفع، اضطربت أرقام القياس لم تعد تجدى حبة الضغط الدقيقة البيضاء، استسلم، تركها وحيدة مثلما تركاهما من قبل.

نظارتها السميكة المقعرة ساعدتها، استرعت انتباهها لأول مرة لملاحظة حجم حبة الضغط التى تعاطتها بعد وفاته بأمر الأطباء، استمعت لنفس نصائحهم معه: الامتناع عن ملح الطعام والمخللات، يعنى أكل بلا طعم، عدم الانفعال، ابتعدى عن كل ما يثير أعصابك، ارمي كل شىء وراء ظهرك، ما تفكريش فى حاجة، يعنى حياة بلا طعم أيضا، لمحت شيئا من الجنون فى كلامهم.

اندفاعاته وغيرته عليها وهما فى مقتبل العمر تشتاق إليها، غيرتها عليه التى افتعلتها أحيانا ليقوى ارتباطها به أكثر، اندفاع ابنتهما إلى حضنه الملىء بالدفء الذى غمر البيت لأكثر من ثلاثين سنة تنعشها، ابنهما والتهامه لكل شىء سريعًا حتى مذاكرته، مازال حيًا في رأسها، حتى أيامه الأخيرة معها لا تفارقها، حبة الضغط التى تسرع بها صباحا إليه قبل أن يتناول أى شىء، إحساسه المتضخم بالانكسار، اختباؤه خلف غلالة النوم التى غلفت أيامه الأخيرة حتى لم يعد يسمع شيئًا، إصراره على تذوق الأكل بكل المشهيات حتى الملح لم يمتنع عنه، ولا هى قدرت أن تمتنع عنه، تذكرت كل شىء تود أن تحياه ثانية.

أدركت لأول مرة شكلا آخر لما كان يعانيه، سهمت، سرحت مثلما سهم

وسرح، تعجبت أن نتحول إلى أشياء لا تتذوق ولا تحس ولا تشعر بأمر الأطباء!

كيف تمحو عمرها وكل ما كان، تفقد ذاكرته، أشياؤها وأشياؤهم تسكن فيها تحيا فى كل جزء منها، تلح عليها تدق على رأسها بعنف لايرحم، أتعيش قدر ما عاشت؟! أتحيا منتبهة بلا طعم ولا ذكرى؟!

قبضت على الحبة فى بطن كفها، دفعت بها إلى فمها ارتعشت يدها، توقفت على حدود شفتيها المطبقتين بحزم شديد، أطرقت قليلا، لفظتها سريعا، تذكرت تعنيف الطبيب لها حين نسيت أن تأخذها مرة وارتفع ضغطها، لخبطت فى الأكل، احتد عليها الطبيب قائلا:

ـ أنتِ بتقتلى نفسك كده، دا اسمه انتحار.

نظرت إلى الحبة كأنها تراها لآخر مرة وتريد أن تودعها، أفلتت من بين راحة كفها المستديرة، سقطت على الأرض بجانب قدمها لأول مرة، اندفعت إلى الثلاجة التقطت علبة الدواء، صممت، رمت بها بعيدا.

قررت أن تعيش رغم كل شيء، تحيا بطريقتها، حياة من صنعها، تأكل فيها كل شيء بطعمها الخاص، تتذكر بقلبها ما تحب، تحيى كل شيء ثانية، تبدت لها الصور ثانية:

جري ابنتهما إلى حضنه حين يعود إلى المنزل، كرة ابنهما الصغير، أطاحت بزجاج النافذة مرات ومرات، تمنت لو عادت لتكسر رتابة الحياة التى تعيشها، كسرتها أخيرا، جاءت بكرة جديدة له، كان صبيا يريد أن يلتهم الدنيا.

رتبت البيت، بدأت تعد لهم الطعام كما اعتادت، تنتظر عودتهم ويعودون، أكل الاولاد لم يستطيعوا الانتظار.

عاد متعبا، اطمأن على الأولاد، التهم غداءه سريعا، ارتاح قليلا، تناقشت معه حول درس الرياضيات للولد، الإنجليزى ستقوم به، البنت مش محتاجة على الأقل السنة دى، السنة الجاية لما تيجى بقى، إسكندرية مازالت المصيف المفضل لولا الزحام.

بدأت تندفع صور الذاكرة نشطة تجرى ناحيتها، تراها شاخصة عفية أمامها، تلتحم معها، تصير جزءا من يومها، تتدفق داخلها يوما بعد يوم، لحظة بلحظة، بكل تفاصيلها المنسية تنعشها من جديد، تسترجع شريطا سينمائيا من إخراجها، أضافت بعض مشاهد ضرورية لسير الأحداث ودفع الحياة فيها، امتلأت حياتها نشاطا كما كانت من أعوام طويلة خلت،

شعرت بنفسها تعود من جديد، عاشت الحلم ثانية، حافظت على مواعيدها معه، كما فعلت من قبل، لم يغضب منها قط، عاشوا داخلها نبضا حقيقيا.

خرجت تشترى ملابس رياضية للبنت، كرة جديدة للولد بدلا من التى أضاعها فى المدرسة، ستعود قبل أن يرجعا لتعد لهما الغداء، تذكرت فجأة، اليوم عيد زواجهما ستأتى له بهدية كما اعتادت، سينسى كما اعتاد وتسامحه، مشاغله كثيرة، غدا يكبر الأولاد ويتفرغان لبعضهما، يرحلان إلى أماكن جديدة، يبنيان ذاكرة جديدة، بذاكرة جديدة يتذكران حياتهما الجديدة.

تذكرت موعد الطبيب، ذهبت إليه لم تدر لماذا! آه لم تنم ثلاثة أيام متتالية حرارة الولد عالية، استقرت أخيرا، خرج مع أصدقائه.

أراد الطبيب أن يقيس لها الضغط، رفضت، أصر، بسطت له ذراعها اليمنى، ربط الجهاز الزئبقى بها، نظر عدة مرات يريد أن يتأكد من قراءته، عاود القراءة مرة ثانية وثالثة، نظر إليها مبتهجا مندهشًا وهو يصيح:

ـ أول مرة ينظبط الضغط عندك بالطريقة دى، أنتِ عملتِ ايه، خليكِ على كده على طول.

تذكرت ميعاد عودتهم، نطت من على الكرسى حتى تصل قبل أن يرجعوا.

***

اليوم موعد المؤتمر الذي يناقش نهاية العالم، أنتظر الراحة النهائية بكل ما ملكت من ترقب ونفاد صبر.

فقدتُ إحدى قدميّ في حرب في بلد ليست وطني، أُرسلت إليها رغمًا عني.

أنتظر إعلان بدء أعمال اليوم بينما أراقب بلا هدف تلك البلهاء، التي تدفع وحدها صندوقًا زجاجيًّا خاويًا كبيرًا جدا، مثبتًا على أربع عجلات، حتى تصل إلى منتصف القاعة الواسعة الممتلئة بمختلف الأعراق، ثم تقف.

أخبرني أحدهم قصتها توًّا، ليست بلهاء كما تبدو، هي امرأة أصابتها فجيعة الفقد بحالة من الذهول، إثر انهيار بيتها جراء قصف قريتها بصاروخ غير معروف المصدر، لم يعد هناك وجود لما كان يعرفه السابقون باسم "الأمان"، العالم ينتهي بالفعل. ولكن ليس دفعة واحدة.

كيف تعيش امرأة فقدت خلال ثوان كل ما يربطها بالكرة الأرضية، جذورها وفروعها، أمها وأخواتها بالإضافة لزوجها وأبنائها؟! بالفعل

صارت رأسها فارغة، تخلصت ذاكرتها من كل ما خزنته في السابق. أصبحت تنفذ الأوامر كالإنسان الآلي (الروبوت)، هي أكثر الحاضرين مواءمة للحدث الحالي.

مع بداية أعمال المؤتمر، الكل يترقب في وجل ممزوج بالصمت التام ما سيحدث، وكأن على رؤوسهم الطير.

طُلب من الجميع خلع رؤوسهم ووضعها في الصندوق الذي جلبته الفاقدة توًّا.

الغريب أن الحضور جميعًا انصاعوا لأمر الرجل الأقوى رئيس المؤتمر، كأنهم أسرى فقدوا أسلحتهم وألسنتهم في نفس الوقت.

الكل يخلع رأسه بسهولة ثم يكمل طريقه إلى مقعده.

أفكر لثوانٍ، ربما كان هذا أفضل بالنسبة لي، حيث سيجنبني عذاب حمل رأسي الثقيل بعد انتهاء كلمة الرئيس الذي يملك رأسًا تشبه زجاج هذا الصندوق في بريقها.

أعاني دائمًا من ألم ثقل رأسي بسبب تعليمات هذا الرجل؛ لأنه "رئيس المؤتمر، وقائدي ورئيس الدولة ذات اليد العليا فوق العالم بأسره، أتمنى لو سمح لي بالتخلص أيضًا من قلبي الذي يدّعي الفهم أحيانًا،

ويوبّخني على تنفيذ أوامره، كما ينفذها كل رجاله، لكن هذا الصندوق مخصص للعقول فقط، ما أروع ألا أدرك شيئًا، ولو كان لفسحة قصيرة من الوقت، من هنا أحتسي رشفة من السعادة والطمأنينة قبل نهاية العالم، سمعت عنهما ولم أتذوقهما نهائيًا.

أنصاع مثلهم للأمر، أتخلص من رأسي الغبية، الثقيلة جدًّا، خفف هذا الفعل الحمل الثقيل عن قدمي الصناعية.

بعد انتهاء أعمال اليوم الأول، خرجنا نبحث عن رؤوسنا، كان الموقف أشبه بالخلافات التي تدور أمام المخابز في بلاد الفقراء، أو تداخل الأصوات في جهاز اللاسلكي خاصتي.

الرؤوس تبدلت، ولا أحد يستطيع أن يجد خاصته بسهولة، أما عني فقد انتظرت حتى ينتهوا جميعًا، لا أملك مهارة التزاحم واقتحام الاشتباكات الفوضوية، أجيد حمل السلاح واستخدامه فقط. انصرف الجميع، اقتربت من الصندوق، تحسسته، تبقت رأس واحدة، انحنيت أحاول التقاطها، عميق جدًا، أخيرا تمكنت من إنهاء مهمتي.

رأس ثقيلة جدًا، لم تكن رأسي هكذا، بصعوبة بالغة أضعها على رقبتي وأثبتها، غريب، ما كل هذه الأفكار؟ دماء، حروب، صراعات،

اجتماعات سرية، عملات مختلفة، مصانع للأسلحة، مخيمات، معتقلات وسجون، صخب وعنف. معظم ما فيها غير مألوف لي، ملمسها، رائحتها، أتحسّس وجهي، ما هذا الشعر الخشن، أصرخ إنه حاجبي، أهرول نحو الحمام لأبحث عن مرآة، تصيبني مشاهدة صورتي بالفزع، أبحث عنه في كل مكان حولي، أكتشف أنه قد غادر. المكان كله خالٍ.

كيف حدث هذا؟ كيف سيسير القائد حاملًا رأسي التي يعلوها شعري ذو الذيل الحصاني القصير؟ وهو المعروف بصلعه.

صداع قاتل يؤرقني، أفكار غريبة تأتيني كومضات.

أطلب من الله أن أدخل في غيبوبة، ستكون أرحم مما لا أقوى على احتماله من لهيب أفكار وأصوات وضجيج في هذه الرأس.

أجد أني تحولت لشخص غيري، أكره الجميع وأحب نفسي كثيرًا، ما هذا؟ أوشكت أن أجن، أسأل الله اللطف.

على عجل أعود إلى القاعة للبحث في الصندوق الذي صار مكانه عند الباب خارج القاعة، بعدما انتهت مهمته. أجد رأسًا مثقوبة، أحملها، أبدل رأس القائد بها، خفيفة، مريحة، التصقت في رقبتي بسهولة تعجبت لها، عدت أتحرك بخفة.

ما هذا الصمت، أحاول أن أبحث داخلها عن أي شيء أعرفه، لا أجد سوى جمجمة جوفاء، أقلبها يمينًا ويسارًا، يبدو أن تلك الرأس فارغة تمامًا.

لا، لقد خُدعت، إنها ليست رأسي، لا تناسبني، عدت للمرة الثانية مسرعًا نحو باب القاعة، بحثت عن الصندوق، فلم أجده.

ندمت كثيرًا، خلعت الرأس ووضعتها عند الباب، وعندما هممت بالمغادرة، وجدت نفس السيدة تدفع الصندوق الفارغ أمامها بخفة، لم يعد لي إلا أن أختار بين رأس مثقوب تخلص من كل ما فيه أو أكمل أيام الحياة عاريًا بلا رأس.

***

قميص نوم أسود. هند عبد اللّه

اعتادت أن تمضي لياليها الطويلة في السير بين غرف منزلها حتى تتعب. السير داخل بيتها أكثر أمانًا من السير في الطرقات، حيث لا معاكسات ولا شمس حارقة ولا همسات الجيران.

مرت أمام غرفة ولديها، اطمأنت إلى تسوية الغطاء فوق كتفيهما وربتت عليهم ثم خرجت من الغرفة

لمحت عيناها دولاب التخزين، ماذا لو قضيت الليلة في ترتيبه والتخلص مما لا أحتاج؟ إنها فكرة مسلية على أية حال. لم أفتح هذا الدولاب منذ سمعت تلك الكلمة التي غيرت حياتي، مازالت ترن في أذني وتصطدم بالجدران لترتد إلى وجهي:

ـ انتِ طالق طالق طالق.

المرأة تطلب الطلاق عندما لا تجد سبيلًا لإصلاح ما بينها وبين زوجها، ومع إصرارها عليه ورغبتها فيه إلا أن الأرض تهتز تحت أقدامها عند سماع هذه الكلمة. فجأة تشعر كمن كان نائمًا مستدفئًا فجاء من يسحب غطاءه عنوة ويترك ظهره عاريًا لبرد الدنيا.

لا يمكن أن تنسى عقب طلاقها حين قدم أخوها لزيارتها واستوقفه صاحب السوبر ماركت ليسأله عمن يكون وهل هو حقا أخوها؟!

بقدر ما انزعجت من وقاحة الرجل بقدر ما انزعجت من سلبية أخيها أمام تصرفه، بل إنه أثنى عليه قائلا:

ـ كده الواحد يتطمن انك تحت الحراسة.

حين سمعت هذا شعرت كأنها أطفئت سيجارة في وريدها للتو.

بدأت في إخراج الكراتين من الدولاب، تراب كثير أكثر من الليالي التي قضيتها وحدي هنا.

هذا صندوق يحوي كاسات وأكواب النيش لا حاجة لي به، سأهديه لفتاة في بداية حياتها علّ حظها يكون أفضل.

وهذا طقم الصيني الذي كانت أمي تباهي به الجيران، لا حاجة لي به، أنا وأولادي لم نأكل في أحد أطباقه أبدا. لماذا يجتهد الإنسان في اكتناز أشياء لن يستخدمها أبدا؟

تبسمت دامعة وهي تسحب حقيبة معبأة بالملابس، أخذها فضولها لتلقي نظرة بداخلها. أحيانا نعلم ما بداخل الشئ ونعاود فتحه مرارًا.

في هذه الحقيبة ملابسها وقت كانت عروسًا جديدة، زجاجات العطر

المثيرة ملفوفة في قمصان نوم حريرية جمعتها لها أمها من مولات الخليج، وقت أن كانت تعمل هناك. اختارت أحدهم وأخذت تتامله.

قميص من الحرير الأسود، آه لشد ما أفتقد ملمس الحرير على جسدي.

حدثتها نفسها:

ـ هولك أرتديه.

ـ لا لا لمن أرتديه.

ـ لنفسك.. ألا يحق لكِ أن تدللي نفسك بشئ هو في الأصل ملك لك.

لم يطل جدالها مع نفسها كثيرًا، حتى قامت وارتدت القميص، وأعدت فنجانًا من القهوة وجلست تشربه مستمعة بملمس الحرير على جسدها.

دق هاتفها فجفلت واهتز الفنجان الساخن في يدها لتنسكب بعض القطرات على القميص.

أجابت الهاتف:

ـ ألوأيوه يا ماما.

ـ ،.،

ـ لا يا حبيبتي مش رايحة الشغل بكرة تعالي لي من بدري.

ـ ،.،

ـ مابانهجش ولا حاجة يا ماما كنت بانضف بس.

ـ """

ـ حاضر.

قامت إلى الحمام، خلعت القميص ووضعته في بعض الماء والصابون وارتدت ملابس النوم ثم أكملت غسل القميص ونشرته على شماعة خلف الباب، ودخلت غرفتها للنوم.

ومع أول خيوط الفجر وصوت منبه الهاتف قامت على عجل لإيقاظ الأولاد وتحضير الحقائب المدرسية. كم هى مرهِقة ساعات الصباح الأولى..

ـ ماما مش لاقي شرابي.

ـ ماما ممكن تكلمي ميس هانيا.

ـ ماما مش عايز سندوتشات جبنة.

ـ ماما ممكن توصلينا انتِ وبلاش الباص.

ـ يووووه كفاية زن بقى حرام عليكو.

ـ يلا خلاص احنا جاهزين يلا.

نزلت تنتظر سيارة المدرسة مع ولديها، وقفت دقائق أمام منزلها. عادة في هذه الدقائق تتحدث مع ولديها وكأنها آخر مرة تراهما فيها.

ـ خدو بالكومن نفسكم.

ـ أحمد ماتضربش أخوك.

ـ وانت يا محمود اسمع كلام أحمد

ـ وكلوا أكلكم كله.

ـ انتوا مالكوش غير بعض.

جاءت العربة وركب الولدان وصعدت سلم البيت لا تفكر في أي شئ إلا اعداد فنجان قهوة صغير، وحبة من دواء الصداع الذي اعتادت أن تبدأ يومها به.

القهوة على النار وهى تنتظرها بنفاد صبر، ليدق جرس الباب.

ـ أهلا ياماما.

ـ قلت الحقك قبل ما تنامي تاني، وكمان عاوزة ارجع اغدي اخوكِ بدري.

ـ انتي تيجي في أي وقت ياماما ده كلام!!

ـ جوزك اتصل بأبوكِ تاني.

ـ ماسموش جوزي ياماما ده طليقي.

ـ أبو ولادك واخلصي بقى خليه يربيهم.

ـ يعني يا امي كل حاجة كانت على يدك وبرضه بتقولي لي ارجعي.

ـ ياختي غِلط وبيقول هيصلح من نفسه عشان الولاد.

ـ آسفة ياماما انا خلاص.

ـ ما تكونيش شايفة لك شوفة؟!

ـ انا ياماما!!كتر خيرك!

ـ ايوه اتقمصي زي كل مرة عشان ماعرفش اكلمك. انا داخلة الحمام.

دخلت الأم الحمام، وما إن أغلقت الباب حتى رأت القميص الحريري الأسود معلقًا خلفه.

دقت صدرها وشهقت وهى تقول:

ـ آه.. علشان كده مش عاوزة ترجعي لجوزك.. طيّب أنا ليَّ صرفة.

خرجت من الحمام وخطفت حقيبتها على عجل.

ـ ماما على فين؟!

ـ معلش نسيت حاجة في البيت. البوتجاز والع.

ـ طيب ابقي طمنيني.

ـ هاطمنك قوي سلام.

خرجت الأم من عندها وهى تضمر في نفسها شيئًا ما. مرت ساعة، وأفاقت رجاء على صوت دقات عنيفة على الباب. جرت لتفتح فإذا به أخوها الأصغر، وقبل أن ترحب به هجم عليها صفعًا وركلًا وسًبا وهو يصرخ في وجهها:

ـ مش عاوزة ترجعي لجوزك عشان عجبك الحرام يا شمال.

لا تعرف ماذا أصابه ولا تدري كيف تحتمي من ركلاته وسبابه. سقطت عند قدميه وهى ترجوه:

ـ طيب بس فهمني فيه إيه؟!

ـ فيه قميص نوم في حمامك يا فاجرة.. كنتِ لابساه لمين؟!

ـ والله العظيم كنت باقيسه أشوف مقاسي ولا لا والقهوة اتدلقت عليه.

ـ فاكراني هاصدقك؟!

ودلف إلى الحمام بسرعة وسحب القميص من حيث وصفت له الأم مكانه، لفه حول رقبتها وهى تصرخ:

ـ هاتخنق، ولادي.

ماهى إلا دقائق وانطفأ النور في عينيها.

مرت عدة أيام قبل أن يظهر خبر صغير في جريدة مهملة.

"انتحار ربة منزل لصعوبة الحياة بعد انفصالها."

***

الذيل، وليد طاهر عبد العزيز

الفرصة بويضة يتجمع حولها البشر كالحيوانات المنوية، وكل منهم يحاول أن يجد فيها ثغرة حتى ينفذ إليها، فتكون له وحده بينما يموت الباقون.

ومن المعلوم بالضرورة أن الحيوان المنوي يترك ذيله، أو بتعبير أدق، يتخلى عنه خارج البويضة كي لا يفسدها بحركته العشوائية، ولهذا فإنك غالبًا ما تضطر إلى التخلي عن مبادئك كي لا تفسد عليك فرصتك بحركتها العشوائية.

تعلمت هذا الدرس وأنا في المرحلة الإعدادية من أستاذ مادة العلوم وإن كان الرجل بريئًا تمامًا من الربط بين الفرصة والبويضة وبيني وبين الحيوان المنوي، فذلك كان اجتهادًا شخصيًا مني.

وعندما دخلت الجامعة، وتحديدًا كلية الإعلام قسم الصحافة، ووقع نظري عليها لأول مرة أدركت فورًا أنها بويضة المستقبل.

كانت زميلتي في نفس الكلية ونفس القسم ونفس السنة، لكنها كانت ابنة أحد كبار الصحفيين الوحيدة، لم يكن هذا فقط ما جذبني نحو

بويضة المستقبل، بل كان أفضل شيء فيها أنها لم تكن محاطة بالكثير من الحيوانات المنوية، فقد كانت دميمة بحق، ولم تكن الدمامة هي أسوأ ما فيها، بل كانت كذلك متكبرة شرسة الطباع، وليس من السهل أن تقترب منها لذا انصرف عنها معظم الحيوانات المنوية، إما لمظهرها البشع وقوامها الذي يشبه شوارعنا غير الممهدة، وإما لطباعها السيئة وتكبرها، لكن كل ذلك لم يكن ليردع حيوانًا منويًا متمرسًا مثلي يعرف جيدًا ماذا يمكن أن تقدم له تلك البويضة.

فهذه البويضة الدميمة المتكبرة الشرسة تكمن بداخلها فرصة الحياة؛ فلديها كل ما أحتاج إليه من (جينات جيدة) ورثتها بالطبع عن أبيها.

لم يكن العثور على الثغرة التي أحتاجها بالأمر الصعب، ولم يستغرق الأمر مني أكثر من عام دراسي واحد، وقبل انتهائه كنت قد تمكنت من كتابة اسمي على تلك البويضة، وصار جميع الزملاء والأساتذة يعرفون أنها لي ولي وحدي.

بدأت أجني ثمار بويضتي منذ اللحظة الأولى؛ فبمجرد أن شاع خبر ارتباطي بها في الكلية حتى بدأت معاملة الأساتذة لي تتحسن، وبدأت أحصل على أعلى الدرجات في جميع الامتحانات، لكنني بالطبع لم أتفوق

عليها لأن تفوقي الدراسي لم يكن إلا قبسًا من تفوقها وتفوق أبيها بالطبع.

لم يكن أحد من أصدقائي يصدق أنني سوف أتمكن من أن أحتفظ بعلاقتي بها حتى يوم التخرج، كانوا جميعًا يرون أنها ستمل مني بعد فترة.

لكن هذا لم يحدث بل استمر ارتباطنا، وكانت علاقتنا تزداد قوة كل يوم عن سابقه حتى تخرجنا في الكلية.

قدمتني لوالدها وتم تعييني فورًا في إحدى الجرائد، كما تم تعييني بفريق الإعداد في أحد أهم برامج (التوك شو) بعد أيام قليلة من تخرجي، وتمت الخطبة، ومن ثم الزواج الذي لم أدفع فيه مليمًا واحدًا بالطبع لأنها كانت تحبني ولا تستطيع أن تحيا بدوني.

وفي يوم الزفاف أخذت أقنع نفسي بكل الطرق، وأتوسل إليها ألا تفسد الخطة التي أمضيت في تنفيذها أكثر من أربع سنوات.

وفي النهاية تمكنت من إقناعها بأداء الدور المطلوب وتمثيل دور العاشق الذي فاز أخيرًا بحبيبته.

وكانت المفاجأة؛ العروس ليست بكرًا.

تركتها ودخلت إلى الشرفة لأدخن سيجارة وأفكر، لم أكن أعرف ما يجب عليَّ أن أفعل.

هل يجب عليَّ أن أقتلها أم أطلقها؟

لاحظت أنها لم تحاول أن تبرر لي الأمر بأي طريقة، بل كانت تتصرف بطبيعتها وكأن ما حدث كان أمرًا عاديًا.

استبعدت فكرة قتلها؛ فأنا أصلًا لا أقدر على التفكير في ذلك الأمر.

لكن هل أطلقها؟

لو فعلت ذلك سأدمر ما نجحت في تحقيقه، وسأعود إلى نقطة البداية.

بعدما أنهيت السيجارة دخلت إلى غرفة النوم، واقتربت منها، وعندما وصلت إليها نظرت إلى بريبة وقالت:

ـ ماذا تريد؟

ـ ألا تعرفين؟

ـ لا أعرف.

ـ أريدك أنتِ.

فتحت ذراعي ثم عانقتها وأنا أفكر في أن الحيوان المنوي يتخلى عن ذيله خارج البويضة كي لا يفسدها بحركته العشوائية.

أمعنت النظر فيما سُطر على الورق أمامي، وأنا أقاوم حتى اللحظة.

رحت أتذكر كلمات مدير أعمالي، وهو يطلب مني كسر القيود التي تغلني:

ـ "هذه فرصتنا الأخيرة، يجب أن توافق على هذا الدور، وإلا لن نفلح إذا أبدا".

لم أتخيل يوما ما، أن أوافق على هذا الدور.

شبح لا يمت لي بصلة!

كيف لي القيام بدور متحرش؟! وأنا كنت في الأيام الزائلة نجم الشاشة بفني النبيل. يأتي اليوم الذي أقوم فيه بدور كومبارس! ومتحرش؟!

ـ "هي مبادئ حييت وسأموت عليها"، نطقتها غاضبًا وأنا أغلق المكالمة في وجه مدير أعمالي.

يأس مطبق يعم المكان، صراع وغليان يموج برأسي، مرآتي تعرض لي التجاعيد التي كست وجهي وروحي، والشعر الأبيض يغزو ما تبقى من رأسي، وظهر انحنى من ويلات الأيام، وأمي الملقاة في المشفى الخاص، لا أستطيع إخراجها بسبب الديون الملزم بدفعها، بعدما افترس

المرض ما تبقى من جسدها، وبين دائنين يحاصرونني أينما ذهبت، ومستأجر يتحين الوقت لطردي، ولست قديرًا على تقمص دور الشحاذ، فاشل لأبعد الحدود...

دائرة مفرغة يستحيل الخروج منها، صراعات لا تنتهي، بين أن أقبل بالدور وتنتهي معاناتي في الحياة، أو أن أصمد وأترك ذكرى تخلد بعد مماتي!

هل أطلب المعونة من زوجتي السابقة، وهي تنادي بالتحرر طالما تؤدي رسالتها كفنانة، وكلماتها لا يزال صداها يتردد في أذني: "لن تجد كسرة خبز لتأكلها"، هل يجب أن تباع القيم من أجل حفنة نقود؟ سؤال أجبته بالنفي القاطع.

لم أستطع أن أقنع نفسي بخنوع الهزيمة، ورحت أُلملم ما تبقى من أنقاض جسد ممزق، لطالما رسمتُ الضحكة على وجوه الناس، وهم يتحينون مسلسلاتي باللحظة والدقيقة، البيت جميعًا شاهدٌ على فنٍ هادفٍ لن تمحوه غياهب الإسفاف والابتذال.

فاحت في أنفي رائحة الذكريات، والحنين إلى الأطلال القديمة، وأنا أرى الأطفال تتدافع إليَّ، يلتقطون الصور الشخصية، وعائلاتهم

يبادرون بالترحيب والتصفيق لرجل أضحكهم وأبكاهم برسالات مختلفة، كنت أمضي وقتًا ممتعًا وأنا أرافقهم، لكن أين هؤلاء القوم الآن؟ تبدلت الناس، أم تبدل الزمن؟!

فتحت دولابي العتيق، والذي يعج بالأوسمة والنياشين، من مُقدّري الفن والفنانين، وأزلت أغطية التراب وخيوط العنكبوت التي تكسوها، وأنا أذرف دموعًا حارة تحسستها على جبيني.

انتزعني من غفوتي، في هذا المشفى الخاص نبرة الطبيب الصارمة، وهو يلقي تحذيره الأخير؛ لسرعة إجراء العملية لوالدتي؛ يبدو أنه قد خارت قواي وضعفت، واستسلمتُ لندائه الأخير.

أخرجت هاتفي النقال من جيب بنطالي، وطلبت الاتصال بوكيل أعمالي، رنين سماعة الاتصال ولا مجيب، مرة واثنين وثلاثة.

انتظرت برهة، دق جرس هاتفي أخيرا، انتشلته بسرعة، وأنا أجيب: مواف....

امتدت يدٌ مرتعشة من على السرير بجواري، رغم وهنها، ألجمت يدي، وهي تتوسل بعينيها مترجية؛ لأقطع الحديث...

أسقطت هاتفي، وأنا أقبل رأس والدتي، وهي تشهق بحشرجة، شهقة أخيرة، مرتسمة على محياها ابتسامة عريضة، كأنها تقول:

ـ حسنا فعلت.

***

فهرس

الفؤاد
للنشر والتوزيع